دكتورة منى حسين مؤنس

مصر في عيون الغرب وأدبه



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

يتناول هذا الكتاب صورة مصر والمصريين والإسلام في الأدب الغربي ولدى الرأى العام هناك وهو موضوع يشدنى منذ زمن طويل ويثير في نفسى انزعاجًا مستمرًا ، ولم أبادر بالكتابة فيه من قبل خوفًا من أن يعتقد البعض أننى قد أعادى الغرب وهذا - بطبيعة الحال - غير صحيح ، وذلك لأننى تعلمت فى مدارس وجامعات أجنبية ثم إننى تخصصت فى الأدب الإنجليزى ، ومن هنا فإن الكثير من مناهجهم فى العمل والتفكير أصبح جزءًا من تكوينى الشخصى ، فليس من الممكن إذن أن أعادى الغرب أو ما هو غربى لأننى أعترف بأن هناك الكثير مما يجب علينا أن نتعلمه منهم .

وإن كنت قد بادرت بالكتابة فى هذا الموضوع فذلك يرجع إلى إننى لاحظت أن الغربيين يتخذون منا موقفًا عامًا سلبيًا لا يقتصر على تصويرنا فى الأدب فقط بل يتعدى ذلك ويشمل جميع الميادين مثل السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ ووسائل الإعلام المختلفة ، ويعملون على أن نظهر فى كتاباتهم وتصويراتهم لنا دائما على أننا الأضعف والأقل قيمة حضاريًا وثقافيًا وفكريًا وسلوكيًا وهذا - بطبيعة الحال - يمثل موقفًا عنصريًا بعيدًا كل البعد عن الواقع الذى نعيشه فنحن كمصريين لدينا جوانب

إيجابيـة كثـيرة يتعمـدون أن يتناسـوها حتـى يقنعوننـا بأنـه ليس لدينـا هويـة واضحـة ولا شـخصية قويـة ذات ملامـح بـارزة ولا شـىء جديـر بالاحـترام نقدمـه .

أملـى أن تـزول هـذه الوقفـة العنصريـة مـن جانبـهم لأنـها أصبحـت تـهدد سـلامتنا واسـتقرارنا إذ صـارت تؤثـر حتـى علـى قراراتـهم السياسـية والاقتصاديـة تجاهنـا ، وهـذا هـو مـا يطالعنـا دائمـا فـى الصحـف اليوميـة وسـائر أجـهزة الإعـلام الغربيـة .

والنمـاذج التـى اخترتـها مـن الأدب الغربـى هنـا لكـى أعـرض فكرتى كلـها كُتب قرأتـها منـذ زمـن بعيـد أو قريـب وقـد يجـد القـارئ أمثلـة أخـرى ، فـهناك الكثـير مـن الروايـات الأجنبيـة التـى تصورنـا ، وسيلاحظ القـارئ أنـها فـى غـالب الأمـر تصورنـا فـى صـورة سـلبية لابـد أن تثـير فينـا جميعًـا مشـاعر الحـزن بـل الغضـب لأنـها غـير مطابقـة للواقـع ، فكـل شـعب يجمـع بـين السـلبيات والإيجابيـات ولكنـهم فيمـا يتعلـق بنـا لا يصـورون إلاّ السـلبيات ويصورونـها بطريقـة مضخمـة ومبالغًـا فيـها فـى أكـثر الأحـوال إلا أن هنـاك الكثـير ممـا ينسـبونه لنـا مـن سـلبيات ليـس ممـا تتسـم بـه شـخصيتنا ، بـل هـو مطـاعن علـى عقيدتنـا الإسـلامية .

لقـد ذكـرت فـى هـذا الكتـاب العديـد مـن الأمثلـة لتصرفـات نـاس من المثقفين المصريـين الذيـن ظـهروا بطريقـة غـير مشـرفة ، كلـها أمثلـة رأيتـها وعشـتها ، ولسـت أذكـر أسمـاء هـؤلاء الأشـخاص لأنـهم فـى

حد ذاتهم لا يعنونني بل يعنيني من قد يفعل مثلهم ولهذا فإنني أتمنى أن تتلاشى هذه الصور والتصرفات من بيننا.

أنني زودت الكتاب بقائمة تضم الأعمال الأدبية التى تناولتها بالعرض والدراسة وكذلك المراجع التى أشرت إليها لأهميتها ، وكان كل اعتمادى على المؤلفات فى طبعاتها الأصلية الأجنبية أما ترجماتها العربية فقد ذكرتها أيضا حتى يتيسر على الجميع قراءة ما فيها.

وقبل أن أنهى تقديمى يجب أن أتقدم بالشكر للأستاذ رجب البنا - رئيس مجلس إدارة دار المعارف ورئيس تحرير مجلة أكتوبر وللأستاذ الدكتور محمود على مكى أستاذ الأدب الأندلسى بجامعة القاهرة وقد شجعنى كلاهما كثيرًا على تأليف هذا الكتاب وهما يمثلان كل منهما فى مجاله - قدوة لكل من يعرفهما.

وأخيراً أتقدم بالشكر لأسرة دار المعارف ولكل من ساهم فى إخراج هذا الكتاب.

القاهرة فى ١٩٩٨/٩/١

د. منى حسين مؤنس
أستاذ مساعد بقسم اللغة الإنجليزية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

المصريون والغربيون

قرأت باهتمام شديد كتاب الصحفى الكبير الأستاذ رجب البنا ، الغرب والإسلام ، (دار المعارف ١٩٩٧) الذى تناول فيه صورة الإسلام فى الغرب وشرح فيه بالتفصيل كيف أن هذه الصورة - وهى سلبية للغاية - تؤثر على القرارات السياسية المهمة التى يتخذونها فى الأمور التى تخص عالمنا الشرقى اليوم .

فى أول الأمر اندهشت كثيرًا لخطورة ذلك بالنسبة لنا ورويدًا رويدًا قلّت دهشتى هذه لأننى أدركت أن هذه الصورة السلبية للإسلام الذى لم يحاولوا فهمه لم تنشأ بين يوم وليلة ولكنها تكونت بالتدريج عبر سنوات طويلة حتى أصبحت راسخة فى العقل الباطن الغربى ولم يعطوا لأنفسهم فرصة فى أن يعيدوا النظر فيها أو قد لا يريدون ذلك ، وقد يرجع ذلك إلى أن فكرة الدين عمومًا كعقيدة مرتبطة بإيمان تلاشت لديهم إلى حد كبير وأصبح الدين عندهم نوعًا من الأيديولوجيا أو اتجاهًا فكريًا عامًا أكثر ارتباطا بالسياسة منه بالدين كعقيدة.. وهو بذلك يمثل حضارة بالنسبة لهم . وبناءً على ذلك أصبح الإسلام كدين وحضارة مرتبطًا بالنسبة لهم بالبلاد العربية بحكم أن أغلبية هذه الشعوب من معتنقيه ، على الرغم من

وجــود أديــان أخــرى لدينــا ، والهندوكيـــة مرتبطـــة بـــالهند والبوذيـة بـالبلاد الآسيوية والمسيحية بـالبلاد الغربيـة حتـى لـو كـان الأمـر الواقـع أن المسيحية كديـن وكعقيـدة ضعفـت إلى حـد كبير لديــهم .

أصبحـت الأديـان إذن عمومًـا معيـارًا يصنفـون علـى أساسـه الثقافــات أو الحضـارات المختلفـة وأصبحــت هــذه الثقافــات أو الحضـارات أكـثر ارتباطـا بالسياسـة منـها بالعقـائد والإيمـان وممـا لا شـك فيــه أن الأديـان المختلفـة هـي التـي تحـدد الملامــح العريضة للثقافـات المختلفـة. (أذكـر أننـي أول مـرة سمعـت فيـها إشـارة إلى أن المستقبل سـيرى حربًـا وتنافسًـا بـين الحضــارات كـانت فـي برنـامج رمضـاني اسمـه «فـاكس» فـي حـوار أجرتـه المذيعـة مرفـت سـلامة مـع الدبلوماسـي ورجـل السياسـة اللامـع الدكتور أسامة البـاز منـذ مـا يقـرب مـن سـنتين) .

وإن قلنـا إن صـورة الإسـلام سـلبية فـي الغـرب – حسـب مـا قرأتـه فـي كتـاب «الغـرب والإسـلام» – فلابـد أن نقـول أيضـا إن صورتنـا نحـن كعـرب أو كمصريـين سـلبية أيضـا عندهـم ولا يظـهر ذلـك فـي ميـدان السياسـة فقـط ، بـل هـو موجــود ومنتشـر فـي علاقاتنـا بـالأفراد الغربيـين وفـي الأدب الغربـي بكـثرة مذهلـة وهـذا هـو الموضـوع الـذى أتنـاولـه هنـا أى صورتنـا كشـعب وصـورة الإسـلام عمومـا فـي بعـض نمـاذج الأدب الغربـي ، كمـا سـأتناول أيضا كيف نشـأت ثـم ترسـخت هـذه الصـورة لديـهم .

إن الكثيرين منا يتصورون أن مصطلح صراع الحضارات أو صراع الثقافات كلام معقد ذو دلالات كبيرة بحيث يتجاوز أفهام عامة الشعب إلا المتخصصين في السياسة والتاريخ والمشتغلين بالآداب ، والفنون . ولكن الحقيقة غير ذلك لأن صراع الحضارات ينبغي أن يهم كل واحد من أفراد الشعب لأنه صراع خفي غير منطوق ، ولكنه موجود وكلنا - أيا كان مستوانا الثقافي - نلمسه ونعيشه .

وأنا شخصيا - على سبيل المثال - كم من مرة استضفت أصدقاء أجانب غربيين في مصر ولاحظت أنهم بدون استثناء لا يلتفتون عموما إلاّ لما هو سلبي لدينا فأجدهم مثلا يصورون أكوام القمامة في الشوارع الرئيسية حتى يثبتوا لأنفسهم الفكرة الراسخة لديهم وهي أننا شعب غير نظيف وكسول لذلك يبتسمون عندما يرون كنَاسي الشوارع وقد ركنوا عربات القمامة قرب الرصيف ، وغالبا ما تعطل هذه العربات المرور ، وتتسبب في حوادث ، بينما يجلسون على الرصيف ليدخنوا وهم يستريحون - كما يقولون - من كثرة العمل ، هذا ولا ينظر هؤلاء الزائرون الغربيون إلى المحلات التجارية الكثيرة المليئة بالملابس المصنوعة في مصر والتي يتحسن نوعها وذوقها يوما بعد يوم ، ثم إن الكثير من واجهات عرض هذه الأزياء لا يقل جمالها وذوقها عما لديهم . إنهم لا يرون ذلك أو ربما لا يريدون أن يروه .

وهم يلتقطون أيضا صور المتسولين عند إشارات المرور وعند تقاطع بعض الشوارع المهمة ويلاحظون أن منهم من يعرج أو يبرز عاهة من العاهات وأن السيدات يحملن على أكتافهن أطفالا صغارًا وهم فى الغالب مرضى وأشكالهم تنطق بالفقر . وهم يلتقطون صورًا لهؤلاء إثباتا لأنفسهم أن بلدنا بلد فقير وأن لا أمل فى رفع مستواه ولا يرون الشوارع مليئة بالسيارات والمارة يرتدون ملابس جيدة والعمارات التى تنشأ وكثرة الكبارى العلوية مما يدل على أن مستوانا المعيشى مقبول وهو فى ارتفاع مستمر . إنهم لا يرون إلاّ السلبيات .

وبمناسبة المتسولين فإنهم ينسون أن لديهم فى بلادهم هذه الظاهرة أيضا ، أذكر أننى عشت فترة من الزمن فى إنجلترا ، وفى مرة من المرات وأنا فى الشارع اقتربت منى سيدة مسنة وطلبت منى «شيلين» لكى تشترى بطاطس (والبطاطس فى إنجلترا بمثابة الفول عندنا) ، فاندهشت وطلبت منها أن تعيد جملتها فقالت مرة أخرى بوضوح : «أنا جائعة وفى حاجة إلى «شيلين» لكى اشترى بطاطس» ، وكان ذلك فى مساء يوم الجمعة أى فى بداية عطلة نهاية الأسبوع . وفهمت أنها ربما تقضى يومين كاملين بدون أن تأكل . وعندما رجعت إلى المنزل الذى كنت أقيم فيه - وكنت أسكن مع أسرة إنجليزية فى ضاحية من ضواحى لندن الشمالية -

سألتهم لو كان لديهم فى إنجلترا متسولون ثم حكيت لهم ما حدث ، فقالوا : إن لديهم بطبيعة الحالة فقراء كثيرين وأن الحكومة الإنجليزية تعطى للمحتاجين مثل العاطلين والمسنين معونة اجتماعية أسبوعية ، ولكن هذه المعونة ضئيلة فالكثيرون من المسنين بالذات يموتون خلال فصل الشتاء من الجوع ومن البرد .

إن لدى صديقة مصرية تعيش فى بلاد الغرب منذ سنوات طويلة ولكن حبها لمصر يجعلها تقضى هنا معظم اجازاتها . وقد عاشت فى الغربة مدة طويلة حتى أصبح مظهرها يوحى بأنها غربية . المهم ، أنه عندما تأتى صديقتى هذه إلى مصر تلاحظ كل التقدم الذى نحرزه ولكنها فى نفس الوقت - تلاحظ السلبيات وبعض النماذج غير الحضارية التى ما زالت لدينا . فماذا تفعل صديقتى هذه حتى تساعد فى إزالة هذه السلبيات ؟ رأت أن تنزل الشارع «بكاميرا» للتصوير وتصور ما لا يعجبها وترسل هذه الصور إلى المحافظ ورئيس الحى والوزراء المختلفين فى مصر الذين فى يدهم إصلاح هذه السلبيات .

وحدث أننى نزلت معها للشارع فى إحدى «جولاتها التصويرية» وكان ذلك فى حى الزمالك . ووصلنا إلى شارع ٢٦ يوليو حيث بائعات الخضراوات اللاتى يجلسن على

الرصيف يبعن خضراوات الموسم وجمعيهن يرتدين الملابس «البلدية» وعلى وجوههن ابتسامة عريضة . فقالت صديقتى : «هذا يا منى منظر غير حضارى على الإطلاق ، ثم أن بعض هذه البائعات صغيرات السن وكان يجب أن تكنَّ فى المدارس لتلقى التعليم ، يجب أن أصورهن لكى يعلم المسئولون الكبار بما يحدث ويجب أن يوقفوا مثل هذه السلبيات» .

وما إن أخذت صديقتى «الكاميرا» وبدأت فى التصوير حتى وجدنا رجلا من رجال الطبقة الشعبية يرتدى الجلباب وهو يجرى نحونا ، وإذا به يختطف من صديقتى «الكاميرا» وهو يصرخ فى غضب ويقول : «ما كفاياكم شرّ بقة !! ما تصوروا حاجة عدلة !! ألم تجدوا فى الشارع كله ما تصورونه إلا هذا المشهد ؟ لماذا تصممون دائما على تشويه صورة بلدنا ؟ قلنا كفاية يعنى كفاية !!» وكان هذا الرجل المصرى الشهم فى حالة عصبية لا توصف وكأنه اعتقد أن صديقتى أجنبية ، فحاولت أن تفهمه ما كانت تقصده من وراء تصويرها ، ولكنه لم يسمع كلمة واحدة . وطال النقاش وعلت الأصوات ووقف المارون فى الطريق يسألون عن سبب الخلاف الذى وقع ، ولم ينته الموضوع إلا بعد أن أعطت صديقتى لهذا الرجل «البلدى المستنير» الفيلم الذى بداخل «الكاميرا» وحرق الرجل «الفيلم» أمامنا واستدار وعاد من حيث جاء.

ما الذى نفهمه من هذه الواقعة التى تبدو بسيطة ؟ نفهم أن صراع الحضارات وصل إلى أدنى طبقات مجتمعنا وأن كلنا نعيشه ونراه ونعرفه جيدا .

إن الزائرين الأجانب يفرحون فرحة غامرة عندما يرون عربات «الكارو» العتيقة تتزاحم فى بعض الشوارع وتعطل المرور . أنهم يهتمون بالحمار الذى يشد العربة هذه ويتعاطفون معه ويتساءلون عما يمكن أن يفعله هذا الحمار «الصغير المسكين» تجاه هجوم العربات «المفترسة» ويؤكد لهم ذلك شيئان وهو أن التحضر بعيد كل البعد عنا وأننا قساة لا نبالى بحال الحيوانات وهم لا يرون - أو لا يلاحظون إطلاقا - إذ أنهم لا يعلقون على ذلك ، مستويات بيوتنا من الداخل التى نستضيفهم فيها ولا نوعية المأكولات التى نقدمها إليهم إلاّ لو كانت حلويات شرقية يعتبرونها نوعا من «الفولكلور» الشعبى : أنهم لا يرون إلاّ السلبيات .

أذكر أننى اصطحبت إحدى صديقاتى الإنجليزيات إلى جامعتى - جامعة القاهرة - وأول ما لفت نظرها أن ساعة الجامعة واقفة (وأذكر أن هذه الساعة مكثت معطلة فترة طويلة جدا من الزمن وأنها مكثت تدق بطريقة عشوائية حتى بعد أن أصلحوها) فرسخ فى ذهنها أن الوقت لدينا ليس له قيمة ولا معنى ، هذا مع أنها لم تقل كلمة واحدة عن مئات

الطلبة الذين داخل الجامعة وعلى الأرصفة خارج أسوار الجامعة ممن يتلقون التعليم ليضمنوا لأنفسهم مستوى حياة أفضل ولينفعوا بلادهم ويرفعوا مستواها فى نفس الوقت .

ولذلك ولأسباب أخرى كثيرة تأكدت أنهم- أى الغربيون - لا يرون لدينا إلاً ما يريدون رؤيته وما يؤكد لهم الفكرة الراسخة لديهم عنا وهى - باختصار شديد - أننا رجعيون ومتخلفون حضاريًا وثقافيًا وأقل منهم فى كل شىء ، وإن كانوا يحترموننى كصديقة أو زميلة فيرجع ذلك إلى تعليمى الأجنبى ثم إلى تخصصى فى الأدب الإنجليزى .. وذلك - فى رأيهم حتى لو لم يقولوه - هو الذى رفع من مستواى فى عيونهم . إن فكرتهم عنا راسخة منذ زمن طويل وهذه الفكرة لا تتغير وهى هى حتى يومنا هذا ، والسؤال هو : من أين أتى الغربيون بمثل هذه الفكرة عنا ؟ وكيف ترسخت لديهم بحيث أنهم لا يرون إلاً ما هو سلبى لدينا ، وحتى أصبحوا يعتقدون اعتقاداً لا جدال فيه بأنهم أحسن منا فى كل شىء ؟

إننى منذ بضعة أشهر تقريبا أمضيت أسبوعا فى قرية سياحية فى الغردقة وكان فى هذه القرية مصريون مثلى وأجانب كثيرون أتوا باحثين عن شواطئنا التى لا مثيل لها فى بلادهم وإلى دفء شمسنا التى لا يجدون مثلها لديهم

(إننى لا أذكر جنسياتهم لأن موقفهم نحونا وتصرفاتهم واحدة سواء كانوا ألمانًا أو إيطاليين أو سويديين ففكرتهم عنا كلهم واحدة) ، لاحظت أنهم بدون استثناء يحاولون تجنب الجلوس تحت شماسي قريبة من شماسي المصريين وكأنهم يخشون أن تصيبهم «جراثيمنا» ، ولاحظت أيضا -وهذا هو المدهش- أن العيوب التى يتهموننا بها أى الصوت العالى وعدم احترام المكان والتصرفات غير الحضارية وأشياء أخرى ، كل ذلك كان لديهم أيضا على نحو لافت للنظر قبل أن يكون لدينا . وعلى سبيل المثال وجدتهم يكلم بعضهم بعضا بصوت عال من تحت شمسية إلى شمسية أخرى وكأنهم سادة المكان ، وهم كذلك لا يحترمون ما يستعملونه من أشياء تابعة للفندق مثل مناشف حمامات الغرف التى يأتون بها إلى الشاطئ والكراسى الخوص التى يستعملونها على «البلاج» إذ يحملونها داخل مياه البحر ولا يبالون بأنهم بذلك قد يتلفونها للأبد . ومن المؤكد أنهم لا يفعلون ذلك فى فنادق بلادهم ، ومعظم سيداتهم يرتدين «المايوه البكينى» ذا القطعة الواحدة، بغير احترام لأخلاقيات بلدنا التى مازالت متحفظة جدا من هذه الناحية . وكل تصرفاتهم هذه جعلتنى أنا وغيرى من المصريين نتفادى نحن أيضا الجلوس بالقرب منهم . وهناك أشياء يقومون بها فى بلادنا من المستحيل أن يفعلوها فى بلادهم أو فى أى بلد غربى .

وأنـا أعـرف أن المنشـورات التـى تـوزع عليـهم مـن قبـل الشركات السياحية التـى يـأتون عـن طريقـها إلى هنـا تحذرهـم بـألا يرتـدوا ملابـس قـد تثير غضـب المصريـين مثـل «البنطلـون الشورت» بالشوارع ، و«المايوهـات» المسرفة فـى العـرى علـى الشواطئ ، ورغـم أنـهم يعلمـون ذلـك فـهم لا يبـالون فيتصرفـون وكأنهم وحدهـم فـى المكـان .

ولاحظـت أكـثر مـن مـرة تصرفـات الأطفـال المصريـين والأطفـال الأجـانب : إن الطفـل بطبيعتـه لا يعـرف شـيئا عـن فـروق الجنسيات والثقافـات فيجـرى الطفـل المصـرى – علـى سـبيل المثـال – نحـو الطفـل الأجنبـى ذى الشـعر الذهبـى والعيـون الـزرق وينظـر إليـه بشـدة أولاً حتـى يتعـرف علـى انـه طفـل مثلـه ، ثـم يبتسم ويقذف نحوه كـرة كـان يلعـب بـها وهـو يريـد بذلـك بدايـة صداقـة بينـهما ، وتقـع الكـرة علـى الأرض . فيفـهم الطفـل الأجنبى مـا قصده الطفـل المصرى فيجـرى ليأخذهـا فتلاحـظ أمـه الأجنبيـة الحـادث فتقـوم مسـرعة وتمنـع ابنـها مـن لمـس هـذه الكـرة وتـأمره أن يعـود إلى أسـرته ، فيفـهم الطفـل الأجنبـى منـذ صغـره أنـه يجـب عليـه ألا يلعـب إلاّ مـع أطفـال مـن جنسـه وبلـده .

إننـى لا أقصـد مـن وراء كلامـى هـذا الإشـارة إلى أن هنـاك عـداوة بيننـا وبـين الغربيـين فـهذه العـداوة غـير موجـودة بـين

الناس ولكنى أريد أن أشير إلى أن هناك فروقًا كثيرة أغلبها حضارية وثقافية تجعل الأجنبى يشعر دائما بأنه أحسن منا ، وهو فى بلدنا ، ويرجع هذا الشعور إلى تربية معيّنة وقراءات عديدة رسخت لديهم صورا عنا أصبح من الصعب جدا تغييرها ، وقد يرجع السبب أيضا إلى سياسات دولية مرسومة من مصلحتها أن تربى لدى أفراد شعبها فكرة أنهم أحسن وأقوى .

إن هذا الصراع بين الثقافات أو الحضارات نراه أيضا فى جامعاتنا فكثير من الأساتذة الأجانب الزائرين يلقون علينا أحيانًا محاضرات لا تزودنا بمعلومة جديدة واحدة ويرجع ذلك إلى أنهم فى صميم أنفسهم يعتقدون أن مستوانا المعرفى تحت المستوى المطلوب بكثير ويندهشون عندما يرون أننا فى بلادنا نقرأ ونكتب ونبدع فى مثل مستواهم ولكنهم لا يعترفون بذلك إلا نادرا ، وهم عموما يحبون التعاون معنا ثقافيا ولكن على شرط – وهو شرط يشعر به ولا ينُطق – أن نفهم أنهم الأحسن والأذكي والأقوى ، أننى أتكلم هنا على الحالة العامة وقد تكون هناك استثناءات ولكنها قليلة ونادرة ، ألم نسمع عن كثير من المصريين الذين سافروا أو هاجروا إلى الخارج وحققوا نجاحًا فى مجال عملهم ، انهم اضطروا إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء أجنبية . إن وراء ذلك شيئًا واحدًا وهو

أنهم يريدون الانتفاع من هذا أو ذاك المصرى ولكنهم يريدون إخفاء أصله حتى يظهروا دائما أنهم هم المتفوقون ، وماذا يقولون للمصرى عندما يطلبون منه أن يغّير اسمه ؟ يقولون له : إن الاسم الأجنبى سيسهل المعاملة معه فى الأعمال الرسمية ، وغالبا ما يفهم المصرى الحقيقة وراء تغيير اسمه وهو إخفاء أصله ولكنه يسكت ويوافق لأنه لا يريد أن يفقد المكانة التى وصل إليها والتى تعب كثيرا لكى يصل إليها .

ألا نسمع أن الكثيرين ممن سافروا ليعدوا دراستهم العليا فى بلاد الغرب اضطروا أن يغيروا مواضيع رسائلهم الأكاديمية حسب توجيهات المشرف الأجنبى؟ نعم ، يحدث ذلك كثيرًا ولسبب واحد وهو أن الموضوع الذى سيعمل فيه الطالب المصرى يجب أن ينفعهم مباشرة أو يساعدهم على مزيد من التعرف بنا فكلما ازدادت معرفتهم بنا أصبحوا فى مكان الأقوى المسيطر .

إن علاقاتنا بالغربيين بمثابة حرب خفية بيننا وبينهم ولكنها حرب تقاد بدون أسلحة وبدون كلام مباشر ولكنها مستمرة لا تمنع أبدا الصداقة والعلاقات الاجتماعية والتبادل الثقافى بيننا وبينهم ولكنها فى الأغلب علاقات قوة وسيطرة لإثبات من هو الأقوى والأرقى والأذكى وهى – فى النهاية – صراع بين الحضارات أو الثقافات حتى لو لم يُصرح بذلك .

إننـي أذكـر أن أحـد الأقسـام بكليـة الآداب اسـتضاف أسـتاذًا زائـرًا لمدة أسـبوع ، وكـانت الاستضافة هـذه تشـمل تذكـرة السـفر بالطـائرة ثـم إقامـة لمدة أسبوع فـي «بيـت الضيافـة» بجامعـة القـاهرة ثـم مبلغًـا مـن الجنيـهات المصريـة يصرفـها الزائـر خـلال إقامتـه هنـا . وكـان كـل ذلـك علـى حسـابنا . وحـدث أن هـذا الأسـتاذ الزائـر صـرف مـا كـان قـد تسـلمه كمصروفـات نثريـة فطلـب مـن إحـدى زميلاتـي أن تقرضـه مبلغًـا مـن الجنيـهات إذ لم يكـن يريـد أن يحـوّل العملـة الصعبـة التـي لديـه وفضـل أن يقـترض . وبعـد مـرور أسـبوع وعنـد مغادرتـه لمصـر ظننـا أنـه سيرجع لزميلتـي هـذا المبلـغ الـذى اقترضـه ودُهشـنا عندمـا قـال إنـه لـن يُرجّـع لهـا المبلـغ نقـدا بـل سيرسـل لهـا كتبـا مـن بلـده بـالمبلغ الـذى اقترضـه ، وفـهمنا مـن ذلـك أنـه لا يريـد أن ينفـق مليما من جيبه فـي مصـر حتـى بعـد أن أمضـى هنـا أيامـاً جميلـة جـدًا فـي استضافة المصريـين ونحـن كلنـا نعلـم سـخاءنا وتكريمنـا للغريـب . وهـذا الأجنبـي أحـب بلدنـا فعـلا ولكنـه بحكـم تربيتـه لا يريـد أن يعطينـا شـيئا أبـدا وهـو لا يفـهم أن ترحيبنـا بـه هـو عادتنا مع كـل غريـب عنـا ، بـل اعتبرهـا حقـا مـن حقوقـه لأنـه غربـي ولأنـه مـن أجـل ذلـك أحسـن منـا ، هـذا مجـرد مثـال وهناك أمثلـة أخـرى كثيرة ترينـا أن شـعورهم بـالتفوق علينـا جـزء مـن تركيبـة شـخصياتهم .

والسؤال هو : من أين أتوا بهذه الثقة وبشعور الاستعلاء هذا ؟ إنهم توارثوه جيلا بعد جيل من الصورة السلبية التى لديهم عنا والتى أتوا بها غالبا مما يسمعونه عنا من إعلامهم ومما يقرءونه عنا فى آدابهم فصورتنا فى هذه الآداب غالبا ما تكون سلبية للغاية وهم كما نعلم - كثيرو القراءة والاستطلاع وهكذا رسخت هذه القراءات فيهم شعورًا قويًا بأننا - مهما فعلنا - فنحن دائما الأضعف والأقل ذكاءً . أليس لدينا ما نسميه «بعقدة الأجنبى ؟» ويرجع ذلك إلى أن الكثيرين منا يعتقد اعتقادا لا جدال فيه بأن ما هو من صناعة الغرب يجب أن يكون أجود مما نصنعه فى بلادنا وهى ظاهرة عامة تدل على أنهم استطاعوا أن يؤثروا حتى على صورتنا عن أنفسنا .

هناك مثال آخر يظهر الصورة السلبية التى لديهم عنا وهو متعلق بموت الأميرة ديانا وعماد الفايد ، لقد تابعت فى التليفزيون الألمانى برنامجا أذيع يوم واحد عن مراسم دفن الأميرة وكان موضوع المناقشة الأميرة ديانا وحياتها وتشييع جنازتها . وكانت من ضمن المشتركين امرأة ألمانية اسمها أليس شفارتسير وهى إحدى كبار ممثلات الحركة النسائية بألمانيا وقالت إن ديانا كانت قد حصلت على درجة كبيرة جدا من النضج والاستقلال الذاتى فى حياتها كامرأة ولكنها

رغم كل نضجها وقوة شخصيتها كانت قد وقعت «فريسة» في يد عماد الفايد الذى «استغل» الفراغ العاطفى الذى كانت تعانى منه الأميرة . وبالمناسبة فإن هذا الرأى هو الشائع بين معظم المعلقين الأوربيين .

ثم قرأت في مجلة أجنبية مؤخرا عن آخر الأحداث والأخبار المتعلقة بقضية مصرع الأميرة وكان من بين ما قرأت تساؤل عن آل الفايد أن أحدًا لا يعرف كيف كوّن محمد الفايد ثروته الهائلة إذ قيل : إنه كان مرتبطا بتاجر أسلحة معروف وأن المخابرات الإنجليزية كانت لذلك تتابع عن قرب تطوّر العلاقة بين الأميرة وعماد الفايد .

ونفهم من هذين الخبرين أن علاقة الأميرة بالرجل المصرى لم تكن علاقة حب عادية بل علاقة استغلال مدروس من الطرف المصرى للطرف الإنجليزى ثم نفهم أيضا من بين السطور أن موت الأميرة أنقذها من مستقبل غامض غير نقى ، ونتساءل هنا : لو كان حبيب الأميرة رجلاً غربيًا وليس مصريًا هل كانوا سيقولون نفس الكلام ؟ يُهيأ إلى أن هذا الحادث وما قيل وكُتب عنه عندنا ولديهم ، أكبر وأوضح صورة لصراع الحضارات أو الثقافات الذى نتكلم عنه هنا ومن أجل ذلك هزّنا ذلك الخبر المؤسف هزة شديدة .

وكل ما نتمناه هو ألا ينجح الإعلام الغربي في أن يغّير رد فعلنا الأول كمصريين تجاه هذا الحادث وهو رأى قلناه في دوائرنا الخاصة وقرأناه في صحفنا اليومية ومجلاتنا الأسبوعية ، فقد كنا على يقين من أنهم لن يسمحوا بإتمام ذلك الزواج حتى لو كان ذلك يتطلب موت أحدهما أو كليهما ، وهذا هو ما حدث بالفعل ، لم يكن الغرب مستعداً لقبول زواج الأميرة من الشاب المصرى وهو موضوع يمس صميم الصراع بين الحضارات وهو صراع موجود حتى يومنا هذا على جميع المستويات ونحن نراه ونعيشه كلما التقينا بشخص غربى أجنبي وتعاملنا معه .

إدوارد سعيد وموقفه من الاستشراق

لفت نظرى من بين الإصدارات الجديدة لـدار المعارف فـى هـذه السنة كتاب اسمه ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، للدكتور محمود حمدى زقزوق وكتابه الغرب والإسلام للأستاذ رجب البنا والذى أشرت إليه سابقا ويتناول كلاهما فكرة الاستشراق ، ويعرض أولهما سلبيات وإيجابيات الاستشراق ، أما ثانيهما فيسلط الأضواء على الصورة السلبية للإسلام التى رسمها لنا الاستشراق الغربى وهى صورة تأخذ بها الحكومات الغربية المختلفة وتتصرف فى أمور العالم حسبها . ويبرز الأستاذ رجب البنا بذلك خطورة هذا التصرف إذ يتعامل معنا الغرب فى المجال السياسى معتمدا على صورة كونها عنا أو أفكار راسخة لديه لا تصور الحقيقة كلها؛ بل لا تظهر منا إلا سلبياتنا . وهذان الكتابان ـ بصراحة ـ أهم ما كتب فى هذا المجال مؤخرا لدينا لأنهما يثيران إلى خط السير السياسى المستقبلى الذى قد يضرنا فى نهاية الأمر ضرراً قد يصبح من الصعب تصحيحه ، وذلك لأن الفكرة السلبية عنا قد ترسخت عند عامة الشعوب فى الغرب كما أوضحت ذلك فى تصرفاتهم معنا فيما سبق .

ومن المهم الآن أن نستعيد اسم من فجر ناقوس الخطر فى بداية الأمر وهو الكاتب الفلسطينى الأصل والأمريكى الجنسية إدوارد سعيد. إننى أؤكد أنه فجر الموضوع ولكنه لم يبدأه لأن كتابنا الكبار

المشتغلين فى مجالات التاريخ الإسلامى والأدب العربى والأدب المقارن والفلسفة لهم كثير من الكتابات ينقدون فيها ما كتبه بعض المستشرقين الغربيين عنا ، ولكن الغرب – فى أغلب الأحوال – تجنبهم ولم يحاول الأخذ بآرائهم لأنه رأى من مصلحته أن نظهر دائما فى صورة الأضعف حضارياً وثقافيا حتى يستطيعوا التصرف فى مستقبلنا وكأننا لا رأى ولا موقف لنا .

المهم الآن أن نقدم مفهوماً مبسطا للاستشراق وهو– كما كتبه الدكتور حمدى زقزوق فى كتابه المذكور عندما كتب قائلا إن «الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى وكلمة ، مستشرق ، بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربى يشتغل بدراسة الشرق كله : أقصاه وأوسطه وأدناه، فى لغاته وآدابه وحضاراته وأديانه ، ص ١٨» أما عن المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذى يعنينا هذا فهو يخص – حسب كلام الدكتور زقزوق – «الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام . وهذا المعنى هو الذى ينصرف إليه الذهن فى عالمنا العربى الإسلامى عندما يطلق لفظ استشراق ومستشرق ، وهو الشائع أيضا فى كتابات المستشرقين المعنيين» (ص١٨) .

كلنا سمعنا عن اسم إدوارد سعيد وكلنا نعرف أنه شخصية مهمة ، ولكن قد لا يعرف البعض سبب أهميته أو إن كان مهما

فعلا، وقد يخجل البعض أن يسأل عنه خوفا من أن يتهموه بالجهل أو اعتبارا منهم أنه لا يهم إلا بعض المتخصصين ، سأحاول أن أثبت هنا أن شخصيات مثل إدوارد سعيد تهمنا جميعا وذلك لأسباب شتى .

من هو إدوارد سعيد ؟

إنه رجل عربي فلسطيني مسيحي بروتستانتي نشأ وتعلم ما بين فلسطين ومصر- إذ تلقى كل تعليمه المدرسي في مصر- والولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الجنسية الأمريكية ويعمل حاليا أستاذاً للأدب المقارن في إحدى جامعاتها الكبرى .

ما هو تخصص عمله ؟

إنه مجال الأدب الإنجليزي وبالذات الأدب المقارن . أما اهتمامه المستمر فهو بالقضية الفلسطينية ، وهو كمعظم الفلسطينيين الفخورين بأصولهم يعد نفسه طرفا في المسألة الفلسطينية ، وهو كمعظم الفلسطينيين الفخورين بأصولهم يعد نفسه طرفا في المسألة الفلسطينية وله أكثر من كتاب يعالج فيه قضية بلاده .

ما هي أهمية إدوارد سعيد بالنسبة لنا ؟

هو - في الحقيقة - مهم جدا حتى لو حاول البعض عندنا أن يتجاهله بسبب أنهم لا يجيدون اللغة الإنجليزية - وهي اللغة التي يؤلف بها سعيد- أو اعتقادا منهم بأن كل من يكتب بلغة أجنبية

ويجد من ينشر له كلامه فى الغرب فلابد أن يكون عدوا لنا.
والحقيقة بعيدة عن ذلك لأن أهمية سعيد ترجع إلى أنه لا يتناول فى كتاباته منظور الغرب للأمور بل يقدم ما يقدمه من كتابات من وجهة نظر عكسية لما تعود الغربيون- وأقصد هنا أمريكا الشمالية وأوربا عموما - أن يجدوه فيما كتب بلغتهم. ويتضح لنا ذلك بشدة فى كلام ما كتبه عن العرب والإسلام والقضية الفلسطينية . وكتابات سعيد كثيرة - إذ يفوق عدد كتبه المنشورة العشرة كتب - وتدور كلها فى مجال تخصصه أى الأدب المقارن ثم اهتماماته السياسية وهى القضية الفلسطينية . ومن بين كتبه الكثيرة اخترت اثنين لأننى وجدت أنهما يمسان موضوعنا هذا ربما أكثر من كتبه الأخرى وهما كتابه الشهير، الاستشراق، (١٩٧٨) -وترجمه إلى العربية كمال أبو ديب ونشر فى ١٩٨١ عن مؤسسة الأبحاث العربية بيروت - ثم كتاب التغطية الإعلامية للإسلام ، (١٩٨١) الذى لم يترجم بعد على ما أظن .

ما هو مضمون كتاب الاستشراق ؟

يتناول سعيد فى كتابه موضوع الاستشراق ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادى وهو القرن الذى تكونت فيه الإمبراطوريات الأوروبية ثم بدأت تتحدد خلاله عبر العالم عن طريق الاستعمار ، ومن أمثلتها الإمبراطورية الإنجليزية والفرنسية والأسبانية وأخريات . اضطرت الدول الغربية المختلفة فى ذلك الوقت أن تسيطر حسب أساليب

مختلفة سيطرة محكمة على جميع مستعمراتها التى كانت تشمل شعوبا وأجناسا مختلفة من الناس . وكان من بين هذه الأساليب التى لجأت إليها الدول الغربية المستعمرة –وبالذات إنجلترا وفرنسا – الاستشراق الذى استخدم سلاحا سياسيا تستطيع عن طريقه أن تحكم وتفرض سيطرتها على بلاد عديدة .

ويعرض سعيد فى كتابه تاريخ الاستشراق وهو يوازى عنده تاريخ اكتشاف الدول الأوروبية لبلاد الشرق الأوسط والأقصى ، وكيف كونت بل ابتكرت صورة محددة لهذه البلاد توحى دائما بالضعف والرجعية ، وكيف نجحت البلاد الغربية المستعمرة فى السيطرة على هذه البلاد العديدة من خلال هذه الصورة التى أوهمت شعوبا كثيرة بأنها ضعيفة وفي أشد الحاجة إلى توجيه فمن أقوى منها وهى بلاد الغرب المستعمر ؟

ويشرح سعيد فى كتابه كيف اشترك جميع الغربيين فى تحديد هذه الصورة التى كانوا جميعهم مقتنعين بها فمنهم رجال السياسة ثم المشتغلون بالآثار ، والفنانون والكتاب والمصورون التشكيليون وغيرهم وكأنهم اتفقوا جميعا على رسم صورة واضحة لملامح بلاد الشرق لا توجد فيها إلا صفات سلبية . ثم وضح سعيد كيف نجحوا فى السيطرة على هذه البلاد بهذه الطريقة. فالمقصود من وراء كل هذه الكتابات كان نوعا من إثارة الإحباط لدى شعوب المستعمرات وإضعاف الروح المعنوية وغرس الشعور بالنقص فيها، وقد تكون مصر على قائمة هذه البلاد .

ويتعرض كتاب »الاستشراق« لنقد دقيق لنماذج عديدة من الأعمال الغربية تظهر المواقف التى اتخذها الكتاب المختلفون منا.

وكيف نظهر نحن المصريين - على سبيل المثال - فى هذه الأعمال ؟

يوضح سعيد أن صورتنا تظهر - بطبيعة الحال - سلبية للغاية : على شكل شعب غير متحضر ورجعي يعتنق معظم أفراده دينا لا يساعدهم على التقدم والترقى بل يدفعهم إلى التجمد فى الماضى والسلبية ، شعب عديم الإرادة والابتكار هو فى أشد الحاجة إلى توجيه سليم نير . هذا التوجيه الذى لن نجده إلا من جانب الدول الغربية المسيطرة التى تعرف تمام المعرفة معنى التقدم والرفاهية وكيفية تحقيقها .

ويوضح سعيد فى كتابه أن عمل المستشرقين بأجمله يظهر صورتين لا صورة واحدة .

أولهما هى الصورة السلبية التى رسموها لنا فى أعمالهم العديدة ، وثانيهما صورة لهم وهى سلبية أيضا لأنها تظهر بلاد الغرب على أنها قوة مسيطرة تفرض وجودها بالقوة والقسوة وبتزييف الواقع ، وأنها مستغلة وليست راعية لمصالح البلاد المستعمرة، فسياستها لا تعرف الرحمة . ونفهم إذن من كتاب «الاستشراق» أن هناك صورتين سلبيتين إحداهما للشرق ، وهو يجسد التخلف كما

أراد أن يرسمها لنا المستشـرقون وكأنـهم اتفقـوا فيمـا يقولونـه ، ثـم صورة أخرى - سلبية أيضا - للغرب وهى صورة كمسـيطر أنـانى لا يرحم .

ويتعرض الكتاب للعديد من المستشرقين وللعديد مـن الكتـاب للعديد من المستشـرقين وللعديـد مـن الكتـاب ورجـال السياسـة الغربيين ومهم رجال معرفون مثل الكاتب الفرنسى فلوبير ورجل السياسة الإنجليزى ديزرائيلى وغيرهم ممن أقل شهرة . ويشـرح سعيد إننا نجد فى كتابات كل هـؤلاء صلـة وثيقـة تجمـع بـين المعلومات التى يقدمونـها وعنصرية واضحة ، وكذلك بـين فكـرة الاستعمار والفكر السياسى المعاصر.

ثم إن مفهوم «الشرق» يتوسع خلال قراءتنا للكتاب فبدلا من أن يقتصر على منطقة معروفة جغرافيا يصبح شاملا للناس الذين يعيشون فى هذه المنطقة ثم الأرض التـى يعيشـون عليـها ثـم الـروح الشـائعة فيها، وكل ذلك ينجذب إليه الغرب ولكنه يخشاه فى نفس الوقـت إذ تتضمن بلاد الشرق قوة روحية معنوية قوية يجهل الغرب أبعادها ولذلك يخشاها ويحـاول أن يقـهرها عـن طريـق السـيطرة العسـكرية وكتابات المستشرقين .

وقد سبق أن ذكرت أن الكثيرين مـن كبـار كتابنـا فـى مجـالات التاريخ الإسلامى والفلسفة والأدب العربى والأدب المقارن ومجـالات أخـرى كتبـوا باسـتفاضة وبطريقـة علميـة أكاديميـة مقنعـة بغــرض

تصحيح رؤى المستشرقين الغربيين ولكن كتاباتهم استبعدت بل نادرا ما أخذ بها الغربيون حتى يظل الرأى المسيطر هو رأيهم وحتى نفهم أن ما يقولونه ويكتبونه عنا هو الصح بلا جدال .

وهنا نأتى أهمية إدوارد سعيد وكتابه «الاستشراق» ، إذ ينتقد فيه أعمال المستشرقين الغربيين ، محاولا بهذه الطريقة أن ينصفنا وأن يوضح إلى أى مدى تجنو علينا فى مؤلفاتهم . وهذا وإن كان فى أحكامه كثير من التعميم وتجاهل لبعض الأقلام الغربية فى عالم الاستشراق ، وقد يكون السبب فى ذلك هو إبراز أفكاره الأساسية حول الاستشراق .

وأذكر أنه بمجرد نزول هذا الكتاب إلى سوق الكتب الغربية رافقته حملة إعلامية هائلة وفهمنا من ضمن ما فهمناه حينذاك أن الغربيين كانوا وكأنهم يريدون أن يستمعوا إلى وجهة نظرنا نحن الشرقيين فيما كتبه فى مجال الاستشراق أى كان نوعا من فتح باب المناقشة فى هذا المجال وكأنهم هم البادئون وكل ما آخذه شخصيا على إدوارد سعيد وكتابه إنه لا يشير فى كتابه إلى أى من كتابنا العرب – والمصريين بالذات – ممن كتبوا كثيرا وبشكل جيد فى هذا المجال وكأنه بذلك قد بدأ الكتابة فى ميدان جديد لم يطرقه أحد قبل . وهو بالنسبة للغرب مجال جديد بالفعل إذ يعتبر سعيد بالنسبة لهم الفاتح لنقد الاستشراق الغربى فهو– كما ذكرت – يعيش ويعمل فى الغرب ويتكلم بلغتهم – فهو أمريكى الجنسية كما ذكرت – ولكن

ما يكتبه آراء في صالحنا تدعم موقفنا . على إننا إذا طرحنا جانبا كل ما أخذناه عليه ونظرنا إلى كتاب «الاستشراق» بنظرة إيجابية وبمحايدة فإننا سنجد ما يلى:

إنه كتاب ممتع وثرى يقدم وجهة نظر جديدة فى موضوع قديم . وهو يقدم كذلك أسلوبا جديدا فى الكتابة ونبرة جديدة فى «صوت» الكاتب إذ أنه يكتب وكأنه يخاطب القارئ مخاطبة شفاهية ثم يعيد ويؤكد ما يقوله مرة ومرتين وثلاثا حتى يثبت رأيه ، وأحيانا وخلال قراءتنا للكتاب نشعر وكأن الكاتب يرفع صوته حتى يفرض رأيه لأنه يعلم أنه أتى بفكرة جديدة وبموقف جديد ، ويواجه معتقدات وكتابات ورؤى قد ترسخت واستقرت فى الغرب حتى أصبح من الصعب تغييرها ، ولكنه يهاجمها كلها وبكل قوته ، ويعبر عن وجهة نظره بطريقة أكاديمية مقنعة للغاية ولكنها مقنعة فقط لهؤلاء الذين مازالت لديهم مرونة فى الفكر وتقبل للتغيير وحب للتطور والتقدم والفهم .

كان كل ما جاء به سعيد فى كتاب «الاستشراق» جديدًا بالنسبة للكتابات الغربية أى من ناحية منظوره للموضوع ثم أسلوبه ونبرة «صوته». ولكنه كان جديدا فى أواخر السبعينات أى منذ ما يقرب من عشرين سنة . وفتح سعيد بكتابه هذا مجالا جديدا وواسعا للبحث العلمى إذ أصبح من الممكن إعادة قراءة النصوص الأدبية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية والسياسية وتفسيرها تفسيرا جديدا وهو مجال ممتع للغاية لأنه يظهر معانى جديدة – وأحيانا مبهرة –

لنصوص كانت مجمدة حسب مفاهيم وقوالب راسخة لا تتحرك . وتساعد نظريات سعيد هذه أيضا على اكتشاف نوايا المؤلفين التي تكون أحيانا خبيثة للغاية ولكنها مغطاة بأسلوب كتابي جميل إذ ساعدت هذه النظريات على رؤية ما نقرؤه من زاوية مختلفة ذات أبعاد عديدة وثرية .

وتولدت عن كتاب «الاستشراق» فى الغرب مؤلفات كثيرة بنت نظرياتها عليه واشتهر مؤلفوها وإن كان بعضهم قد تجاهل اسم سعيد ومؤلفاته ، ولاحظت أن بعضهم أصبح يشير إليه أحيانا على أنه «قديم» مع أنه هو الذى فتح هذا المجال للبحث العلمي وبهذا انفتح مجال واسع للبحث حول أدب الاستعمار، وأدب ما بعد الاستعمار.

وهنا أتساءل : هل يرجع السبب فى ذلك إلى أن إدوارد سعيد فى نهاية الأمر عربى وفلسطيني؟ ربما ، فكل ما أعرفه أنه من الصعب تجاهله أو تخطيه.

إننى أقف هنا لحظة وأسأل : لماذا لم نستفد هنا فى مصر من كتاب مثل «الاستشراق» هذا بنسبة أكبر؟ إنه كتاب وكأنه آلف لنا فنحن فى أشد الحاجة له ولأمثاله من المؤلفات.فقد صدر- كما ذكرت- فى أواخر السبعينات وما زالت تصدر له طبعات جديدة حتى الآن فى الغرب لأنه من الكتب التى تعيش وتبقى دائما جديدة. ومع هذا فإننى حينما أتتبع ما يكتب لدينا أى أن ما تضمنه

من نظريات وتوجيهات لم يؤخذ به إلا فى مجالات الأدب والفلسفة وحتى فى هذين المجالين فالاستفادة منه ما زالت محددة جـــدا.
ما هو- أو من هو – السبب فى ذلك يا ترى ؟؟

....

والكتاب الثانى لإدوارد سعيد الذى اخترت أن أتكلم عنه هنا ، هو كتابه «التغطية الإعلامية للإسلام» (١٩٨١) ويشرح فيه كيف يتكاتف الإعلام الغربى والمتخصصون فى رسالته حتى يحددوا المنظور الذى نرى من خلاله العالم .

إن هذا الكتاب لم يحظ من النقاد الغربيين من الاهتمام بما حظى به كتاب «الاستشراق» رغم أنه لنفس المؤلف ورغم إنه يستكمل فيه ما بداه فى كتابه الأول المذكور . وعندما نقرأ الكتاب نفهم سبب تفاديه وعدم انتشاره فالكثيرون لم يسمعوا عنه قط . والسبب فى تجنبه وعدم إلقاء الضوء عليه – رغم إنه نشر منذ ما يفوق السنوات العشر – هو إنه يتناول موضوع الإسلام ويوضح كيف يظهر الإعلام الغربى صورة واحدة سلبية له وكيف يحاولون ترسيخ هذه الصورة غير المحايدة وغير الصحيحة.

وموضوع الإسلام فى ذاته غير مستحب لدى الغربيين والسبب فى هذا يكمن فى أنه موضوع يمس مجال الصراع بين الحضارات ولكننا نعلم مدى قوة الإسلام كدين وكحضارة ، ثم الأعداد الهائلة من الناس الذين يعتنقون هذه العقيدة ويؤمنون بالحضارة التى تستند إليها .

لا يتعرض سعيد لتفاصيل العقيدة الإسلامية في كتابه ولكنه يتخذ الإسلام كموضوع مهم تناوله الإعلام الغربي وأشاع من خلالـه صـورة محددة له ليُعرف جمهوره بها. ويشرح لنا سعيد كيف كونت أجهزة الإعلام الغربى فكرة محددة وغير كاملة وعديمة العمق عن الإسلام ، ثم نشرت هذه الصورة السلبية للغاية خـلال جميـع أجـهزة الإعـلام المكتوبة والمرئية والسمعية . وكان من نتائج ذلك أن معظـم الغربيـين ينفرون من مجرد سمـاع كلمـة «إسـلام» إذ يربطونـه تلقائيـا بفكـره العنف والجريمة والرجعية والعدائية والتصوف الهمجي وقيم أخـرى غير مستحبة في الغرب (وهم غافلون عن حقيقة أن هذه القيـم غـير مستحبة لدينا أيضا).

ويقول سعيد: إن صورة الإسلام السلبية هـذه بـدأت تتكـون فـى الإعلام الأمريكي في السبعينات وبعد حـرب أكتوبـر عندمـا اتفقـت البلاد العربية على قطع مد البلاد الغربية بالبترول وهو مورد أساسى للحياة هناك .

وبما أن معظم سكان البلاد العربية مسلمون ارتبطت فكرة الإسلام فى العقل الغربى بالخطر الذى يهدد حياتهم فهو أيضـا يثـير فيـهم الخوف ، وأصبح معنى ذلك أن كل من هو مسلم يعتـبر عـدوا لهـم. هكذا صور الإعلام الأمريكى الإسلام ، وهكذا انتقلت نفس الصورة إلى البلاد الأوروبية.

ويشرح سعيد كيف أثير موضوع الإسلام مرة أخرى عندمـا قـامت الثورة الإيرانية ودخلت إيران تحت حكم آية الله الخومينـى ويقـول

سعيد : إن كل تصرفات الخوميني ومن حوله لم يفهمها الغربيون لأنه كان رافضا لكل من النظام السياسي الشيوعي، وكذلك الرأسمالي الذي كان يقدمه الغرب حينذاك والذي يعدونه تقدميا وأن اكثر ما لفت النظر حينذاك كان ارتباط الخوميني بالإسلام ، وهكذا أصبح مفهوم الإسلام مرتبطا عندهم بالأصولية وبعدم المقدرة على فهم الغير. ولم يربط الإعلام الغربي– وبالذات الأمريكي– هذه الأفكار السلبية بإيران فحسب بل ربطها بجميع الدول العربية إذ معظم سكانها من المسلمين.

ويؤكد سعيد أن من استفاد استفادة كلية من صورة الإسلام السلبية هذه كانت دولة إسرائيل إذ كان يصورها الغرب في إعلامه دائما على أنها دولة ديمقراطية متزنة وقريبة إلى نفوس الغربيين وعقلانيتهم ونادرا ما يربط الإعلام الغربي – والأمريكي بالذات – إسرائيل بكونها دولة دينية في المقام الأول وهذا ما نعرفه جميعا.

وصورة الإسلام التي بدأت تظهر منذ السبعينات ثم ترسخت بالتدريج في أمريكا الشمالية أولا ثم في جميع بلاد الغرب هي صورة غير كاملة وسلبية للغاية ويراد منها إثارة خوف الغربيين من كل ما هو مرتبط بالإسلام .

وهنا علينا أن نتساءل : لماذا لم تتغير هذه الصورة السيئة للإسلام في الإعلام الغربي ؟ لماذا لا تتزن وتشمل صورة كاملة له؟

يقول سعيد في كتابه : إن الغرب يرى انه ليس من مصلحته أن تتغير هذه الصورة ويذكر على سبيل المثال أن معظم المتخصصين فـي دراسات الشرق الأوسط بالجماعــات هنــاك متصلـون عمومـا بطريقـة مباشرة أو غير مباشرة بشركات بترول ومصارف كبرى أو بقطاعات حكومية مهمة من مصلحتها أن تبقى هذه الصورة على ما هى عليه ويقول أيضا : إن هنــاك رقابـة قويـة وتوجـهات عليـا أحيانـا غـير مباشرة وغير ملحوظة. ترى إنه من مصلحتها أيضا أن يظهر الإسلام فى صورة سلبية حتى تتحـد رؤى ومواقـف الشـعوب تجـاه القضايـا الخارجية ، وأن كل ما يحدث الآن أو ما يقوم به الإعلام فى الغرب بتشويه صورة الإسلام وربطه بقيم مرفوضة ليـس إلا إكمـالا لمـا بـدأه المستشرقون الغربيون من قبل. ويضيف سعيد أن رجل الإعلام الغربى يعلم بفطرته من أى منظور يصور أى موضوع حتى يفيد بذلك موقف وطنه منه ويدعمه فهو يعلم أن مصالح وطنـــه مرتبطـة ارتباطـا وثيقـا بمصلحته الشخصية الذاتية فى نهاية الأمر. ويحذر سعيد فى الجزء الأخير من كتابه من خطورة ترسخ هذه الصــورة السـلبية وأن تصبـح جزءا من المعتقدات الغربية المسلم بهما ويصبح من الصعب تغييرها ، وهو يؤكد أن نتيجة كل هذا قد تؤدى إلى ردود فعل من قبل المسلمين قد يأسف عليها الجميع فى المستقبل .

إن كتاب «التغطية الإعلامية للإسلام» يحتوى على ما يقرب من مائتى صفحة وهو يتألف من ثلاثة أجزاء . موضوع الجــزء الأول هـو

«الإسلام كخبر إعلامى» ، والثانى «قصة إيران» ، أما الثالث فموضوعه ، «المعرفة والسلطة» ، وهو كتاب جرىء فى الموضوع الذى يتناوله وفى الأسلوب الذى كتب به ، ثم إنه ثرى فى مضمونه إذ به أمثله كثيرة ومستفيضة مرتبطة بأحداث شتى وقعت فى عالمنا العربى، ويصف سعيد كيف غطى الإعلام الأمريكى والأوربى هذه الأحداث بحيث تظهر من خلال التغطية صورة واحدة سلبية للإسلام هى صورة مخيفة وغير مرضية . والغريب فى أمر هذا الكتاب أنه على الرغم من أهميته ومن أن واجبنا أن نقرأه جميعا فإنه لم يترجم إلى العربية حتى الآن .

إن الكتاب يمس فى الصميم موضوع الصراع بين الحضارات الذى نتكلم عنه هنا وبما أنه يكشف طريقة عمل الإعلام الغربى - وهى طريقة تتصادم مع الديمقراطية التى يزعم بها الغرب - ولا سيما الولايات المتحدة - إذن فهو خير ممثل لها ولذلك لم ينتشر انتشار بعض مؤلفات إدوارد سعيد الأخرى .

....

إن كل ما ذكرته هنا ذكرنى بحديث جرى بينى وبين أبى الدكتور حسين مؤنس رحمه الله إذ كنت قد قصصت عليه كيف شككت فى أمر امرأة إنجليزية ، وقلت له إنها من المؤكد أنها تعمل فى المخابرات الإنجليزية . وأذكر أنه رد على قائلا : «لماذا تظنين أن هذه السيدة بالذات مخبرة لحكومتها؟ إن كل إنجليزى مخبر

تابع لحكومته . فإن شك الإنجليزى – أى إنجليزى – فى شىء على أنه قد يضر ببلده أو سمعته فلابد أن يذهب من تلقاء نفسه ويبلغ عن الأمر. وهذا جزء من تصرفاته العادية. هل رأيت مرة واحدة إنجليزيا يمس سمعة بلده فى الكلام؟ أو يقوم بعمل يضر ببلده بأى طريقة؟ هذا مستحيل والسبب هو أن شعورهم بوطنيتهم رسخ فى نفوسهم منذ الصغر حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصياتهم» وأدركت أن هذه السمة هى سمة يشترك فيها جميع مواطنى الدول الغربية وهو اعتزازهم بوطنيتهم . إذ إنهم يعرفون تاريخ ماضيهم معرفة جيدة ويعملون على الحفاظ على مصالحهم ومصالح دولهم ويتفقون عموما فى مواقفهم تجاه الأمور الخارجية.

وعندما ألتفت إلى واقعنا المصرى وجدت أن هناك نماذج غير مشرفة فيما يخص التمسك بقوميتنا تجاه الغرب ولكنها والحمد لله قليلة والكثيرون منا يلاحظونها وينتقدونها . أمثلتى مأخوذة من إطار عملى وهو الجامعة :

إننا نعلم أن هناك مؤرخين فى الغرب يكتبون تاريخنا وبالذات تاريخنا المعاصر، ولكنهم يفعلون ذلك من وجهة نظرهم هم ويأملون أن يؤثروا فينا حتى يستطيعوا أن يشتركوا فى تكوين مسار مستقبلنا. وماذا نقرأ فى معظم هذه المراجع العلمية ؟ إننا نجد أنهم يبرزون فيها الشخصيات المصرية أو العربية – التى تميل إلى فكرهم وتحقيق مصالحهم ويساندونها ويتجاهلون آخرين ، ثم أنهم يؤكدون

أن أى علم مفيد لا يأتى إلينا إلا من الغرب، ثم يوضحون كيف أن الدين الإسلامى يمثل عقبة فى طريق التقدم والمستقبل ويحاولون إثبات إن كل مفكر مصرى ذى قيمة له ميول علمانية حتى لو لم يفصح بذلك وأشياء أخرى موجودة فى كتب ذات طبعات جميلة صادرة معظمها عن دور نشر غربية كبيرة ، وماذا يريدون من وراء ذلك ؟ إنهم يريدون أن يرسموا لنا تاريخنا حسب رؤيتهم حتى يتحكموا فى مسار مستقبلنا.

ومن ضمن هذه الكتب كتاب ألفه مؤرخ أمريكى عن تاريخ جامعة القاهرة – وهذا الكتاب متداول فى الأسواق المصرية ويباع بخمسة جنيهات فقط أى أنه فى متناول أى إنسان يقرأ الإنجليزية أيا كانت قدرته المالية .

حتى هنا والكلام مقبول فلا بأس فى أن تطرح فى الأسواق جميع أنواع الكتب حتى نعلم ما يدور فى عالمنا من أفكار عنا .

ولكن كيف نحكم على أستاذ جامعى مصرى يختار هذا الكتاب – وهو اختيار شخصى وفردى – ويهديه باسم الجامعة التى ينتمى إليها من يزور الجامعة من أساتذة غربيين ؟

هل قرأ هذا الأستاذ المصرى الكتاب قبل أن يهديه؟ هل هو مقتنع بما كتب فيه ؟

وماذا يقصد من وراء إهداء مثل هذا الكتاب ؟

....

إننى حضرت محاضرة ألقاها أحد الأساتذة الزائرين الغربيين فى إحدى المؤسسات العلمية الكبرى في مصر. وكان موضوع المحاضرة عن تاريخ البحر الأبيض المتوسط وما به من تعدد ثقافات وأديان الخ.

وكانت خلاصة كلام هذا الأستاذ الزائر- وهو ذو سمعة كبيرة - أن العرب لم يكن لهم أى وجود ملحوظ مهم فى البحر الأبيض المتوسط على مدى التاريخ - والسؤال هنا هو: لماذا دعت هذه المؤسسة العلمية هذا الأستاذ بالذات لكى يلقى محاضرة عامة فى مصر؟ هل كانت تعلم بمحتوى محاضرته؟ وما هو الغرض من وراء هذا ؟

....

إننى حضرت ندوة دولية عقدت فى مصر عن موضوع هام. وكما جرت العادة فى مثل هذه المناسبات هناك فترة من الزمن بعد كل بحث يقرأ يدلى فيها من يريد التعقيب من الحضور . وتواتنى الدهشة عندما سمعت أستاذا جامعيا مصريا احترمه جدا واقرأ له كثيرا يقول إن مظاهرات الطلاب التى كانت تقام فى عهد ما قبل الثورة لم يكن لها أى صفة وطنية. فالذين قاموا بها كانوا طلابا رسبوا فى مادة اللغة الإنجليزية وهذا كان احتجاجهم على رسوبهم ، لا أكثر ولا أقل .

والسؤال هنا هو : هل يؤمن هذا الأستاذ الجامعى المصرى بمثل هذا الرأى فعلا ؟ أو أنه قال هذا الكلام على سبيل الدعابة ؟ هل

نسى أن كل ما يقال عنا أو نقوله نحن فى مؤتمر دولى يؤخذ دائما مأخذ الجد ؟

....

إن الأمثلة التى ذكرتها تمس صحيح موضوع الصراع بين الحضارات الموجودة بالفعل وكلها تشير إلى أن بعض أساتذة جامعاتنا - وهم قليلون والحمد لله - لا يأخذونه مأخذ الجد ويتصرفون أحيانا بتلقائية وعفوية مجردة من أى شعور بالمسئولية تجاه مصر ومن المؤكد أنها تصرفات ستعود إلينا بالضرر بمرور الزمن.

إننى أترك للقارئ أن يحكم على الأمثلة التى ذكرتها وأن يسترجع من ذاكرته أمثلة مشابهة قد صادفها فى مجال عمله وأن يسأل نفسه :

هل من الممكن أن نخلق لأنفسنا صورة قوية واضحة صريحة نواجه بها الصورة السلبية التى رسمها لنا الغربيون - والتى ذكرها إدوارد سعيد في مؤلفاته المشار إليها هنا - بمثل هذا التصرف؟ إن التصرفات والأقوال الواردة فى الأمثلة المذكورة لا تمت بصلة إلى حرية الفكر لأنها تخص واقعنا المصرى الماضى والحاضر الذى عاشته أجيال قبلنا ونعيشه نحن الآن .

إدوارد لين : الجلباب و «الجوزة»

كان اختيارى لإدوارد لين (١٨٠١ – ١٨٦٧) نموذجا لمستشرقى القرن التاسع عشر ، لأنه من الكتّاب الذين هاجمهم إدوارد سعيد فى كتابه «الاستشراق» وقال عنهم إنهم أساءوا فى تصويرهم لبلادنا ، وقد وقع اختيارى هذا على إدوارد لين بالذات لأنه كان أيضا من المستشرقين القليلين الذين أحبوا مصر فعلا ، وجاءوا إليها فى بداية الأمر لكى يتعرفوا على البلد وعلى الناس وعلى الأدب العربى . ومن المعروف عنه أنه كان يحب أن يختلط بالمصريين ، وكان يفضل أثناء وجوده هنا أن يبتعد عن الإنجليز أو عن الأجانب عموما، وأن يعيش مع المصريين ويشاركهم فى عاداتهم وتقاليدهم ، فكان يلبس الجلباب أثناء إقامته فى مصر ويدخن الجوزة ، ويخفى أنه إنجليزى ، ويفهم الناس أنه تركى حتى يتمكن من دخول الجوامع ومتابعة تقاليد المصريين وعاداتهم عن قرب ، حتى بلغ به الأمر أنهم كانوا يسمونه «منصور بك» وكان هو يحب هذه التسمية .

ومن المعروف عن إدوارد لين أيضا – كما تثبت خطاباته لأصدقائه – أنه كان يفتقد الحياة فى مصر طوال وجوده فى إنجلترا، وكان دائما يسعى إلى الرجوع إلى بلدنا .

إن من أجمل الكتب التى قرأتها عن حياة إدوارد لين وأعماله هو كتاب كتبته الباحثة المصرية الدكتورة ليلى أحمد التى تعمل حاليا

بإحدى الجامعات الكبرى بالولايات المتحدة الأمريكية وتسرد فيه كيف كان لين يعشق مصر ، وكيف كان يعيش بيننا ، وكيف وهب حياته لدراسة مصر وكل ما هو عربى ونستنتج من كتابها عنه - وهو كتاب ممتع - أن لين لم يقدم فى كتاباته إلا صورة إيجابية لمصر ، هذا رأيها .

وعندما نراجع أعمال إدوارد لين نجد أنه فعلا وهب حياته لدراسة كل ما يخص مصر وما يتصل بها ، فإنتاجه فى مجال الاستشراق معروف لدى المتخصصين فى هذا المجال ، ومعروف عنه كباحث دقته الأكاديمية وأسلوبه المتزن ، واستفاضة شرحه لما يتناوله من مواضيع ، مما يثبت أنه يعرف ما يكتب عنه معرفة جيدة وأنه يخلص إلى نتائج معتمدا أساسًا عل ما رآه هو شخصيا.

ونذكر من أعمال لين كتابه المعروف «**تقاليد المصريين المحدثين وعاداتهم**» (١٨٣٦) الذى ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ عدلى طاهر نور فى عام ١٩٥٠ وصدر عن مطبعة الرسالة تحت عنوان : «المصريون يتحدثون ، تقاليدهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر» .

وترجم لين كتاب «**ألف ليلة وليلة**» فى ثلاثة أجزاء (١٨٣٨-١٨٤١) واعتمد فى ذلك على معرفته باللغة العربية . ومن المعروف أن ما أضافه لين من هوامش لترجمته هذه يمثل جهدا غير مسبوق لشرح الحياة الاجتماعية فى مصر . ويقال أيضا إن لهذه

الهوامش فى حد ذاتها قيمة كبيرة فهى تفيد الدارس الغربى فى فهم كثير من النواحى المختلفة لحياة المصريين فى القرن الماضى .

ثم إنه ترجم بعض المختارات من القرآن الكريم (١٨٤٣) وكذلك ألف قاموسا عربيا إنجليزيا من ثمانية مجلدات (١٨٦٣ - ١٨٩٣) أضيفت إليها أربعة مجلدات أخرى نشرت بعد ذلك تحت إشراف زوج أخته ، وقد علمت أن كبار لغويينا فى مجمع اللغة العربية فى مصر مازالوا يرجعون إليه ويستعملونه فى كثير من الأحيان كمرجع لغوى أساسى حتى يومنا هذا .

كل ما ذكرته هنا يثبت أن إدوارد لين كان مستشرقاً وباحثاً فى علم الاستشراق أفاد فى مجال علمه وأفادنا نحن أيضاً . **والموضوع الذى أريد أن أثيره هنا هو أن إدوارد لين رغم حبه الشديد لمصر وللمصريين ورغم ادعائه بإنصافه لنا فى كتاباته فإنه قدم صورة غير إيجابية للإسلام فى كتابه عن تقاليد المصريين وعاداتهم وهو بذلك يثبت أنه تأثر بميول عامة المستشرقين فى زمنه** ، بالرغم من أنه أكد دائما أنه حرص على الكتابة المحايدة ، ويعتبر لين من الشخصيات المحبوبة جدا لدى الغربيين والمحترمة جدا بيننا .

يقدم لين فى كتابه «تقاليد المصريين المحدثين وعاداتهم» صورة كاملة لحياة المصريين اليومية بالقاهرة فى بداية القرن التاسع عشر أى فى فترة من الزمن كانت الحياة فى مصر ما زالت هادئة إذ لم

تكن قد وقعت بعد تحت نير الاستعمار ، وكان ذلك فى أواخر عهد محمد على . صحيح أن مكانة مصر الجغرافية المهمة بالنسبة لعالم الغرب كانت قد برزت بقدوم الحملة الفرنسية ووقوع معركة أبو قير بين الإنجليز والفرنسيين فى ١٧٩٨ ولكن لم يصل لها الاستعمار بمفهومه المعروف وما يأتى به من فرض القوة على السكان المحليين . إن الكثيرين من الرحالة الأوربيين ، وكذلك الكتّاب المستشرقون – مثل لين– كانوا يأتون إلى مصر لإرضاء فضولهم والتطلع إلى معرفة تراث مصر القديمة والحديثة ، وأيضًا لأسباب صحية ، لكن الحياة هنا كانت هادئة ومستقرة إلى حد كبير ، واستطاع لين أن يقدم تصويرا دقيقا لحياة مصر وعاداتها فى ذلك الوقت ولم ينس أى وجه من أوجه الحياة الاجتماعية .

يتكوّن الكتاب من ثمانية وعشرين فصلا ويشمل مواضيع مثل وصف الملابس ، ونوعية التعليم الموجود ، والحياة المنزلية ، وعادة التدخين وشرب القهوة ، والحمامات العامة والألعاب والموسيقى ، والاحتفالات الشعبية والدينية ، ومراسم الموت ، وهناك ستة ملحقات للكتاب يصف فيها لين أشياء من الحلية النسائية ، وعناية المصريين ببعض الأمراض المنتشرة محليًا ومواضيع أخرى . ويصف لين كل هذه الأشياء وصفا دقيقًا للغاية يساعد القارئ على تصور الشيء الموصوف . ثم يحتوى الكتاب أيضا على أكثر من مائة وثلاثين رسمًا قام بعملها لين نفسه حتى يوضح ما يصفه ، وساعد

لين فى ذلك أنه كـان قـد تعلـم الرسـم فـى بدايـة حياتـه ، ثـم أن الأسلوب الذى كان يكتب به لين كان هادئا ومتزنا لا يتغـير خـلال الكتاب كله . وأخيرا ساعد تنظيم مواد الكتاب وترتيبها القارئ على استيعاب المادة المقدمة وعلى تتبع القراءة فيه بطريقة منطقية ، وقيل بخصوص طريقة عرض محتويات الكتاب إن لين استعان فيه بكتاب «وصف مصر» الفرنسى المعروف . المهم ما يعنينا هنا أن لين قدم فى كتابه عن المصريين وعاداتهم نموذجا ممتازا لكتاب مرشد للسفر لكل من يريد السفر إلى مصر ، هـذا إلى جـانب أنـه عمـل أدبـى جميـل ومتكامل .

ويُعد هذا الكتاب دليلا سياحيا لمصر منطلقا من فكرة كان مأخوذا بها فى أيام لين بل حتى اليوم ، فالكثيرون من الغربيين القادمين – حتى يومنا هذا – يقرءون كتـاب لـين ويعتمـدون علـى مـا فيـه مـن معلومات ، برغم أنه مضى على نشره أكثر من مائة وخمسين عاما . يرجع السبب فى ذلك – كما ذكرت – إلى أن الكتـاب يقـدم صـورة متكاملة لعادات مصـر وتقاليدهـا فـى القـرن المـاضى . وبعـض هـذه العادات ما زالت موجودة حتى يومنا هذا .

كان يعتبر كتاب لين إذن الكتاب العمدة لمعرفـة مصـر آنَ ذاكَ ، وكذلك لمعرفة باقى البلاد العربية لما بين هذه البلاد مـن تشـابه فـى العقيدة الدينية وبعض العادات والتقاليد المتوارثة ، أى لأنـه كتـاب قرأه معظم الغربيين وقت أن نشر لأول مرة ومـا زال يقـرؤه كـل مـن

يأتي لزيارتنا حتى يومنا هـذا لأنـه - كمـا ذكـرت - كتـاب مملـوء بالتفاصيل التي تخص حياة المصريين اليومية ، ويثير بذلـك اهتمـام الغرب عنا . ثم أنه عمل أدبي لا يمل منه القارئ ، ونفهم مـن وراء ذلك أن الصورة التي قدمها لين لمصر انطبعت في خيال كل من فكر في زيارة بلدنا من الغربيين ، وأنا أعرف أن الكثيرين ممن كتبوا عن بلدنا في مجال الأدب رجعوا إلى كتاب لين ليستكملوا شرح فكرة أو وصف تقليد أو عادة مصريـة لم يعيشوها أو لم يجدوها بيننـا عنـد مجيئهم إلى بلدنا . وأصبح بذلـك كتـاب لـين يقنـع القـارئ الغربـي بدرجة أكـبر مـن الواقـع المصـرى نفسـه ، كذلـك أن الكثـيرين مـن الروائيين الغربيين على سبيل المثال قد نقلوا في كتاباتهم وصف لين لبعض مظاهر من حياتنا الشعبية بدلا من أن يعتمـدوا علـى مـا رأوه بأنفسـهم اعتقـادًا منـهم أن مصـر بلـد لا تتغـير مـهما مـرت عليـها السنون ، وأن ما كتبه لين عن مصر من هـذا الكـلام الـذى أعجبـهم يقدم صورة لبلد تثير خيالهم ، فهم يفضلـون أن تبقـى هـذه الصـورة كما هي في كتاب لين ، ثم إن أغلبهم على يقين من أنه من الصعب علينا أن نتطور أو أن نحرز أي نوع من التقدم الحقيقي .

وعندما نقرأ الكتاب يبدو لنا في البداية أنه يقـدم وصفًـا محـايدًا للحيـاة الاجتماعيـة المصريـة فـي بدايـة القـرن التاسـع عشـر إلاّ أن توجيهات لين للقارئ وأراءه موجودة وبكـثرة ، لكنـها خفيـة وغـير لافتة للنظر . إنني سـأقتصر هنـا علـى وصـف صـورة الإسـلام التـي

تتكون من خلال قراءتنا للكتاب ، وموقف لين من المصريين عمومًا .
فنحن نجد أن لين رغم حبه الشديد لمصر فإن النزعة العنصرية التى كانت منتشرة فى أيامه قد أثرت على رؤيته لمصر وللإسلام وتظهر فى كتابه على الوجه التالى :

يبدأ لين كتابه بمقدمة طويلة يشرح فيها كيف نبتت فكرة تأليف كتاب عن تقاليد وعادات المصريين ، ومدى حبه لهذا الشعب الذى يعتبره «من أكثر الشعوب إثارة للإستطلاع فى هذا العالم» ، وكيف حرص على مصاحبة بعض المصريين أثناء وجوده بينهم حتى يتعرف من خلال إقامته هذه على دخائل حياتهم وتقاليدهم ، ثم يصف لين أحد هؤلاء الأصدقاء المصريين ، ونفهم انه يقدمه كنموذج لأصدقائه المصريين الحميمين وهو «الشيخ أحمد» على أنه مصرى مسلم ، ومن المتدينين ، ويقول إنه يكثر من أكل الزجاج ، إذ لا يتمالك نفسه عندما يراه ويضع فى فمه قطعا منها ويبتلعها ، وأنه عوقب لذلك عدة مرات ، ويقول لين أيضا إن الشيخ أحمد هذا يأكل الثعابين حية ، ثم إنه عاشر امرأة فى الحرام داخل بيت أخيها ، وإنه لم يتمم زواجه منها إلا بعد أن دفع له أحد الغرباء المهر المطلوب ، ثم أثار الشيخ أحمد نفسه المشاكل بينه وبين زوجته الجديدة – إذ كان متزوجاً من قبل – حتى طلبت زوجته الجديدة الطلاق منه ، وذلك من أجل أن يتركها بدون أن يعطى لها حقوقها الشرعية التى تدفع عند إتمام الطلاق .

يقول لين كل هذا فى وصف للشيخ أحمد وهو – كما قلت – أحد أصدقائه المصريين المسلمين المتدينين المقربين إليه ، وهو بطبيعة الحال وصف غير مقنع لإنسان يفوق الخيال ، ثم يضيف لين فى نهاية هذه المقدمة لكتابه عن الحياة الاجتماعية فى مصر انه تعمد أن يكون محايدا فى كتابه بقدر المستطاع .. وأنه لن يسرد فيه إلا الحقيقة حتى يقدم صورة حقيقية لشعب مصر الذى أحبه واحترمه .

ماذا يتضح لنا من مقدمة لين هذه ؟ وماذا يفهم القارئ الغربى منها ؟

يفهم القارئ الغربى وبالذات القارئ الغربى فى بداية القرن التاسع عشر ، أى فى وقت لم تكن مصر ولا المصريون معروفين– أن لين– وهو يمثل هنا الإنسان الغربى المتحضر ذا التفكير والتصرف المتحضر المنطقى سيدخل قراءه إلى عالم يشبه عالم الحكايات الخرافية حيث نجد أصدقاءه المصريين المسلمين يميلون إلى التصرف غير السوى ولا يحترمون كيان الأسرة ولا قدسية الزواج ، ولا سيما إذا ذكرنا أن الزواج كمؤسسة اجتماعية كان مقدسا لدى الإنجليز بالذات فى بداية القرن الماضى ، أى فى العصر الفيكتورى فى إنجلترا .

أما نحن فنقرأ فى هذه المقدمة ميول إدوارد لين العنصرية إذ أنه يبدأ كتابا مهما يصف فيه شعبًا غريبًا عنه ومنذ بداية كلامه يؤكد

أنه كرجل إنجليزى غربى يتفوق على صديقه المصرى الشرقى حضاريًا ودينيًا ، ومما يزيد ذلك تأكيدًا هو ما قرره منذ البداية من أنه سيلتزم بالحياد وبالدقة فيما سيسرده .

والسؤال هنا هو : هل كان يقصد لين أن يضفى الطابع العنصرى لكتابه ؟ ربما ، ولكن إذا استرجعنا حبه الشديد لمصر وعمله الجاد المتواصل المستفيض في مجال الاستشراق فمن الممكن أن نستنتج أن ميوله العنصرية راجعة لتربيته الأولى حيث تعلم أن الإنسان الغربى يتفوق بطبيعته على الإنسان الشرقى ، ولهذا فليس من السهل أن نرجع هذه الميول العنصرية لدى لين إلى غرض مبيت .

وعند تكملتنا لقراءة نص لين عن عادات وتقاليد المصريين فى عهده نجد ما يلى : يحدد لين فى الفصل الأولى من كتابه أنه سيصف عادات وتقاليد المصريين المسلمين أو - كما يسميهم أيضا - المصريين العرب - لأنهم - حسب كلامه - يمثلون أغلبية سكان مصر فى ذلك الحين . ونفهم من ذلك أن أى كلام سيسرده عن المسلمين يشمل المصريين عمومًا .

ونلاحظ هنا أيضا أن لين يفصل ما بين المصريين حسب الديانة التى يعتنقونها . وأعتقد أن ذلك من الخطأ أن يقال عند وصف عادات وتقاليد شعب مثل مصر ، حيث نجد أن كثيرا من العادات والتقاليد مشتركة بين الطوائف الدينية المختلفة ، ثم إن الكثير منها

يرجع إلى عهود ما قبل الإسلام ، والتفرقة بين المصريين التى يتعمدها لين هنا ليثبت دقته العلمية كان من الممكن أن يتجنبها . ألم تكن مثل هذه التفرقة بين المصريين على أساس دينهم هى من أول مظاهر التفريق بين أفراد الشعب المصرى وزرع بذرة الاختلاف بين الأديان عندنا مما أدى بعد مرور زمن طويل إلى ما نقرؤه اليوم عن «أقباط المهجر» على سبيل المثال ؟ (نظر ١٠٨٧ و ١٠٨٨ من مجلة أكتوبر حيث يثار هذا الموضوع) .

ويخصص لين فى كتابه فصلا واحدا – وهو الفصل الثالث– لشرح مبادئ العقيدة الإسلامية والشريعة . وأكثر ما لفت انتباهى فى هذا الفصل أن لين يقوم فيه بترجمة قام بها من العربية للإنجليزية لخطبة تقدم – حسب كلامه – فى كل أول يوم جمعة فى بداية العام الهجرى ويؤكد أن هذه الخطبة لا تتغير . وينقل فى آخرها دعاءً يلعن فيه خطيب الجامع كل من هو غير مسلم ويصفهم بأنهم أعداء للمسلمين – أى المصريين – متمنيًا لهم الموت والعذاب والهلاك، ثم يضيف لين هامشًا فى أسفل نفس الصفحة يقول فيه إن هذا الدعاء ليس متضمنا فى خطبة يوم الجمعة هذه وأن هناك إمام جامع صديقًا له أكد له أن كثيرًا من هذه الأدعية ضد غير المسلمين كثيرا ما تستبعد من الخطب (ص ٩١ من كتاب لين هنا الإشارة إلى الأصل الإنجليزى المطبوع سنة ١٩٢٣) .

والسؤال هنا هو : من هو الإمام أو الأئمة الذين حصل لين منهم على نسخة هذه الخطبة ؟ فهو برغم دقته العلمية المعروفة لا يذكر أى اسم ، ولماذا يذكر فقرات فى الخطبة المترجمة التى يستعملها كنموذج للخطب التى تلقى فى الواقع فى المناسبات الدينية ويعترف بعد ذلك فى الهامش أنه ليس على يقين بأن هذه الأدعية تقال بالفعل ؟ ألم يدرك لين أنه بهذه الطريقة يربط فكرة الإسلام بقيم القسوة والكراهية والعدائية لكل غريب ؟

ونقرأ فى الفصل الثانى من الكتاب – ويتناول فيه لين موضوع تربية الأطفال المصريين – أن الطفل المصرى المسلم يتعلم منذ صغره أن يكره المسيحيين وكل من ينتمي لدين غير دينه وأن هذه الكراهية نحو غير المسلم تظل معه حتى نهاية عمره (ص٦٠) .

ويؤكد لين أن فكرة العدوانية والكراهية للغريب موجودة لدى المصريين المسلمين مرة أخرى عندما يتناول موضوع «الشخصية المصرية» فى الفصل الثالث عشر من كتابه (ص ٢٨٣) ثم يضيف هامشا آخر هنا يشير فيه للقارئ أن يقرأ ملحقا فى آخر كتابه نشر فيها ما أسماه «بدعاء تلامذة المدارس» يتعلمه الطفل المصرى المسلم منذ صغره ويغرس فيه كراهية المسيحي بالذات (ص ٥٨٢) ، وينص لين على أن هذا الدعاء يقرؤه الأطفال المصريون كل يوم بعد صلاة العصر إلا يوم الخميس فإنهم يتلونه بعد صلاة الظهر ! ! ثم يضيف لين فى أسفل نفس الصفحة هامشًا يوجه فيها القارئ إلى خطبة

الجمعة المذكورة أعلاه حيث يقول إنه ليس متأكدًا من أن مثل هذه الأدعية عادة متبعة فى مصر أم لا .

والسؤال هنا هو : هل من الممكن فعلا أن توصف طريقة لين فى الكتابة بأنها دقيقة وعلمية فيما يخص وصفه لبعض تعاليم الدين الإسلامى فى مصر ؟ أليس فى طريقته نوع من توجيه رأى القارئ حتى يربط فكرة عقيدة الإسلام بالعدائية لكل من هو غير مسلم وبالذات للمسيحى وهو مدرك أن معظم قراء كتابه غربيون مسيحيون بحكم نشأتهم وتربيتهم وأنهم لذلك سيتأثرون بما يكتب ؟ ثم لماذا يلجأ لين للهوامش حتى ينفى فيها ما قاله فى متن نصه ؟ ألا يعلم لين أن الكثيرين من القراء لا يقرءون الهوامش هذه ؟

ونشعر خلال قراءتنا لكتاب لين كأنه مكرس من أوله إلى آخر صفحة فيه إلى إفهام القارئ الغربى أولا أن الإنسان الغربى هو الأحسن والأقوى والأذكى إذا قورن بالإنسان الشرقى . ثم إن الغربى بما أنه مسيحى يجب أن يحترس من الشرقى المسلم إذ إن لدينا فى الشرق شعورا كامنا يربى فينا منذ نشأتنا يعلمنا أن نكره كل ما هو غير مسلم ، ومعنى هذا باختصار شديد أننا نمثل لهم خطرًا يجب الاحتراس منه .

كتب لين هذا الكلام فى ١٨٣٦ . ونفهم من هذا أن الصراع بين الحضارات موجود وقائم منذ ذلك الحين ، وربما من قبله ، وما دام

موجودا وملموسًا حتى اليوم كما أشار إلى ذلك الأستاذ رجب البنا فى كتابه «الغرب والإسلام» ، قائلا : «لم أكن أتصور أن كبار المفكرين ورجال السياسة فى أوربا يأخذون مأخذ الجد النظرية التى تقول: إن الإسلام هو العدو القادم للحضارة الغربية .. وأنه العدو الأكبر.. وأنه دين يحمل فى داخله عوامل التخلف .. والعنف .. والجهل» (ص٢١٠) ، وموضحا لهذا الكلام يلخص الأفكار الرئيسية التى يحتويها كتاب مثل كتاب «صراع الحضارات» (١٩٩٦) لمفكر أمريكى اسمه صامويل هانتجتون حيث يعتبر فيه الإسلام دينًا وحضارة وثقافة ويقول «وهناك حوالى ألف مليون مسلم يعتنوقن هذا الدين ..لهم أفكار ومعتقدات وميراث ثقافى وحضارى مختلف تماما عن الغرب .. وهم يريدون أن يفرضوا عقيدتهم بالقوة .. بالعنف .. بالإرهاب .. بتدمير الحضارة الغربية.. المسلمون هم التهديد الأخير .. وهم الخطر الماثل أمام الغرب كله.. وإما أن يقضى الإسلام على الغرب .. وأما أن يقضى الغرب على الإسلام ، (ص٢١٤) » ويشرح لنا الأستاذ رجب قائلا : «إن هذا الصراع فى رأيه ليس صراعا عقائديا ، وليس صراع ديانات .. وليس صراع حضارات ولا ثقافات ولكنه صراع مصالح» (ص٢١٥) ..

وعودة إلى كتاب إدوارد لين نجد أن موقف البلاد الغربية اليوم من الإسلام وبالتالى منا كشعب لم يحدد فقط فى عهدنا هذا بل هو موقف موجود منذ زمن طويل ساهم فى إنشائه كتاب كثيرون مثلما

فعل لين فى كتابه عن عادات وتقاليد المصريين . وكما ذكرت من قبل إن لين لا يحاضر عن الإسلام ويصفه على أنه عقيدة تجسد العنف ولكنه يضيف من حين لآخر متضمنا فى نص كتابه جملا وملاحظات وإشارات تفهم القارئ الغربى أن من يعتنق الإسلام يجب أن يحذر منه لأن الإسلام دين يعلم العنف والعداء والقسوة ..

وهناك أمثلة أخرى فى كتاب لين تقلل من قيمة الدين الإسلامى، وأذكر على سبيل المثال أنه يكرس فصلا واحدا يشرح فيه مبادئ الإسلام وعادات المسلمين بينما يكرس فصلين كاملين - **وهما الفصل العاشر والفصل الحادى عشر** - ليشرح فيهما الخرافات المنتشرة فى مصر ويمزج ما بين هذه الخرافات والدين بطريقة تجعل القارئ الغربى فى نهاية الأمر لا يعرف تماما إن كان المصريون يعلمون دينهم وحدوده أم أنهم لا يفرقون بين ما هو دين وما هو اعتقاد خرافى أو أن كانت مبادئ الإسلام نفسها غير واضحة أمامهم . وبناء على ذلك تظهر صورة الإسلام من هذين الفصلين على أنها عقيدة غير جادة وعديمة العقلانية والمنطق يعتمد من يعتنقها على أحاسيسه وشعوره أكثر من اعتماده على قدرته العقلية .

وعندما يشير لين إلى وصف الملامح العامة لشخصية الإنسان المصرى - ويقصد المسلم - فى **الفصل الثالث عشر** من كتابة يقول بصراحة ووضوح : إن المصرى فى شبابه ذكى وسريع الفهم وله ذاكرة قوية ولكن قوة عقله هذه تقل بمرور الزمن ويرجع ذلك إلى

الدين الإسلامى والشريعة والمناخ فى مصر و «أشياء أخرى» لا يحددها (ص ٢٨٣) . ونفهم من ذلك أن الدين فى رأيه من ضمن الأسباب الأساسية وراء تخلف المصريين ونستنتج أنهم فى حاجة إلى ريادة وتوجيه مثل ما يمكن أن يقدمه لهم الغرب .

ثم يضيف لين من حين إلى آخر فى متن نصه ملاحظات تشوه صورة الإسلام عند القارئ الغربى مثل الجمل الآتية على سبيل المثال والنص - بالمناسبة - ملئ بأمثالها :

- «يعتقد الكثيرون أن نص القرآن لم يتغير كثيرا عبر الزمان» (ص ٦٧)

- «هناك الكثيرون من المصريين لا يقومون بفريضة الصلاة» (ص ١٤٤)

- «أن المصرى يخطئ كثيرا فى تعاليم دينه ويكتفى بأن يستغفر الله» (ص ٢٨٦)..

- «إن إيمان المسلم بعقيدته ضعيف إلى حد كبير» (ص ٢٩٠)

والسؤال هنا هو : ما هى الصورة التى يكونها القارئ الغربى عن الإسلام - وبالتالى عن المصريين - من كتاب لين ؟ إن الإسلام يظهر كعقيدة غير محددة الملامح وغير منطقية وأنه دين عداء وكراهية وقسوة وأنه لا يعرف الرحمة لغير المسلم .

وانطبعت مثل هـذه الصورة عنا فـى عقـل القارئ الغربـى منـذ بدايات القرن الماضى عن طريق كتب ذات سمعة عظيمة فى الغـرب مثل تلك التى نُسبت إلى كتاب لين عن عادات وتقـاليد المصريـين ، وكان هذا الكتاب بالذات يُعتبر الكتاب العمدة لمعرفة شعب مصـر إذ لم يقرؤه المئات ، بل الملايين منذ أن صدر لأول مرة فى عـام ١٨٣٦ حتى يومنا هذا .

والأفكـار والصـور التـى تُستنتج مـن مثـل هـذا الكتـاب تترسـخ وتتوارث فى الغرب من جيـل إلى جيـل حتـى وصلـت إلينـا الآن ، ونحن نتحدث عن «الصراع بين الحضارات» الـذى نعيشـه ونسـمع عنه بدلا من أن يكون «حوارا بين الحضارات» .

إن مستشرقا مثل إدوارد لين أفاد الدراسات في مجال الاستشراق ولكنه ضرنا نحن كشعب وضرّ علاقاتنا بالغرب إذ جعلهم يتصرفـون معنا حسب صورة مرسومة لا تطابق دائما الواقع الملموس ..

هـذا وإن كـان مـا صوّره مـن أخطــاء يرجـع إلى تربيتـه الأولى التـى علمتـه أن ينظـر إلينـا مـن منظـور خـاص غـير محـايد وليـس راجعا إلى غـرض مبّيت : هـل كـان لـين فـى نهايـة الأمـر يُعّـرف الأجنبـى الـذى يعـرف حقيقـة مصـــر بحقيقـــة مصـــر التـــى كـان يحبـها أم كـان يخـدم مصـالح وطنـه إنجلـترا ؟ وأيـن ذهـب حبـه الشديد لمصـر؟

....

عندما أفكر في أمر إدوارد لين كإنسان إنجليزي أتى إلى بلدنا وأحب المعيشة بيننا وأقرأ كتابه أشعر وكأن حبه لمصر كان ممزوجا بكراهية شديدة في نفس الوقت ، وذكرني أمره بأمر مستشرق إنجليزي آخر أتى إلى مصر في الأربعينيات من هذا القرن وكان- مثل لين يحب عشرة المصريين وصداقتهم ويحترم الدين الإسلامي بل إنه أسلم بالفعل . ثم أحب مصرية من طبقة اجتماعية راقية وطلبها من أهلها وتم الزواج بينهما . وكل من حضر حفل الزفاف- وبعضهم لا زال على قيد الحياة- حكي أنه كان فرحا يشبه أفراح ألف ليلة وليلة وكان مستشرقا إنجليزيا معروفا ولا يزال معروفا حتى الآن وكان يدرس بجامعتنا أي جامعة فؤاد الأول في ذلك الحين ، ثم أنه كان محبوباً لمن عرفه من المصريين .

وبعد إتمام الزواج ظهرت معاملته لزوجته المصرية غير سوية فكانت مزيجا من الحب والكراهية في آن واحد . استمر الزواج وأنجبت منه طفلين ، ثم عاد هو إلى إنجلترا ورافقته هي من أجل أبنائها ، واستمرت معاملته لها تعبر عن حب شديد وكراهية لا ترحم في نفس الوقت .

بدأت الزوجة المصرية تخشاه وتخشى تصرفاته واضطرت إلى أن تهرب من جانبه تاركة أبناءه معه ، وبهذا التصرف

كانت قد خسرت بيتها وزواجها وأولادها ثم أنها لم تجد في مصر بلدها بيتا تستقر فيه ولا مالا يعينها على الحياة .

ثم تعرفت على مصرى فهم موقفها واحترمه ، وحيث أنها أعجبته تزوجها وعاشت معه حياة مستقرة ، ومكثت طوال عمرها تفكر في أبنائها في إنجلترا وتراسلهم وترسل إليهم الهدايا . ولاحظت الأم المصرية أنه بمرور الزمن قلّت اتصالاتهم بها حتى طلبوا منها ألا تحاول الاتصال بهم ثانية . والذى حدث في هذا الوقت هو أن أباهم المستشرق الإنجليزى كان قد نقل لهم كراهيته لأمهم ، وتوفيت الابنة وقالوا أنها لم تكن ترغب في الحياة إذ عانت كثيرا من حرمان حب الأبوين وعدم وجود استقرار أسرى .

وتوفيت هذه السيدة المصرية منذ سنوات قليلة وماتت وهي امرأة ثرية إذ كانت الحكومة المصرية قد أعادت لها كل ما كانت أممته الدولة من أملاكها من قبل . وأرسلوا رسالة لابنها في إنجلترا حتى يأتى ليتسلم ميراثه ، وكان رد ابنها أنه متنازل عن ميراثه من أمه : كان الأب المستشرق الإنجليزى ملأ قلب ابنه بكراهية شديدة نحو أمه المصرية لدرجة أنه لم يرد تسلم أى شىء منها ولا حتى حقه في الميراث .

إننى تعرفت على هذه السيدة فى الثمانينات ، كانت قد كبرت فى السن ولكنها مازالت جميلة وأتذكر نظرة عينيها وكانت عينين كبيرتين سوداوين ، وكانت ذكية جدا وخفيفة الظل ، وكلما كنت أفكر فى أمرها كان يُهيّأ إلىّ أن زوجها المستشرق الإنجليزى لم يكن يعاملها بصفتها امرأة وزوجة بل كان يعكس شعوره نحو مصر فى معاملته لها وهو شعور غريب يختلط فيه الحب والكراهية بنفس الدرجة ، أما أبناء هذه الزيجة فلم يبق فيهم إلاّ الكراهية نحو أمهم المصرية .

لورينس داريل: عنصرى من الدرجة الأولى

قد يكون لورينس داريل من أكثر الكتّاب الإنجليز ذِكرًا فى صفحات الأدب من صحفنا اليومية ، فكثيرًا ما نقرأ كلامًا مثل التالى : «إن لورينس داريل هو كاتب رباعية الإسكندرية» المعروف أو «داريل هو الكاتب الإنجليزى العظيم الذى أثر على نجيب محفوظ في كتابة روايته ميرامار». أو نقرأ خبرًا يشير إليه ، مثل الخبر الآتى الذى نشر فى الأهرام بتاريخ ١٩٩٥/٨/٦ حيث يقول كاتبه : «اكتشاف منزل الأديب العالمى لورينس داريل فى الإسكندرية». ونقرأ تحت هذا العنوان كلاما من بينه ما يلى: « فى هذا المنزل – هو قصر قديم – كتب الأديب العالمى رائعته التى اختار لها عنوان «رباعية الاسكندرية» . وسجل فيها الحياة فى المدينة فى لوحات أدبية بديعة».

وهنا نتساءل : هل قرأ كل من يشير إلى رباعية داريل هذه الروايات الأربع بالفعل ؟ هل سأل أحد عن محتوى هذه الروايات قبل أن يمتدح بها ويضرب بها المثل ؟ لا أظن أن هذا حدث بالفعل لأن الصورة التى يقدمها داريل للإسكندرية وللمصريين من ناسها صورة غير مشرفة لنا على الإطلاق وهو الموضوع الذى أتناوله هنا .

وبالمناسبة : كم أتمنى ألا يصدر أحد أحكاما عن أعمال غربية فى صحفنا اليومية ومجلاتنا الأسبوعية إلا بعد أن يتعرف على هذه

الأعمال بنفسه فمن ضمن ما نقرؤه أشياء ليست إلا تعميمات عائمة أو نقل آراء مشكوك في أمرها. إنني لا أقصد هنا ما كتب عن داريل بصفة خاصة هنا وهناك ولكنى أقصد ما يكتب عموما عن الأدب الغربي أو عن نماذج منه.

وعودة إلى لورينس داريل فهو عاش ما بين ١٩١٢ و ١٩٩٠. وهو أيرلندى الأصل ولكن – مثل الكثيرين من الكتاب الإيرلنديين – مثل جيمس جويس وصامويل بيكيت – ألف أعماله باللغة الإنجليزية بدلا من اللغة الأيرلندية الأصلية ، ثم أنه عبر في أعماله عن كل ما يؤمن به الإنجليز ومن هنا فهو ينتسب للأدب الإنجليزى . إنه كتب الرواية والشعر وأبدع فى المجالين إذ يعتبر إنتاجه من النوع المتميز من حيث الأسلوب وتقنيات السرد التى يطبقها .

عاش داريل في كل من إنجلترا والهند واليونان ومصر وأمريكا اللاتينية وفرنسا فهو بحكم وظيفته وهى الصحافة – كان كثير التنقل والسفر وأثرت هذه السفريات – بطبيعة الحال – على كتاباته وأثرتها .

إن داريل لم يعش فى مصر إلا أربع سنوات إذ أتى إلى بلادنا بعد بداية الحرب العالمية الثانية وجاء مضطرًا لا بإرادته . فقد كان يعيش فى اليونان مثل الكثير من الإنجليز الآخرين فى ذلك الحين – أى فى بداية الأربعينيات من هذا القرن – ثم اضطروا جميعا إلى أن

يلجئوا إلى مصر هربا من خطر الحرب الذى كان يهدد اليونان وكان فرارهم بحثا عن الأمان في مصر تحت رعاية حكومتهم التي كانت تحكم بلدنا في ذلك الحين.

وصل داريل إلى مصر في عام ١٩٤١ وغادرها في ١٩٤٥ متوجها إلى فرنسا حيث أقام سنوات طويلة . وفي فرنسا ألف الروايات الأربع التي تكون رباعيته المشهورة وهي تتضمن رواية «جوستين» (١٩٥٧) ورواية بالتازار (١٩٥٨) ورواية «ماونت أليف» (١٩٥٨)ثم رواية «كليا» (١٩٦٠) . نفهم من هذا أنه كتب الرباعية بعد مغادرته لمصر بمدة طويلة وأنه استند في ذلك على ذكرياته عن مصر ثم إنه لم يبدأ في نشرها إلا بعد مرور ما يفوق على عشر سنوات من مغادرته لبلدنا .

إن داريل– كما ذكرت – لم يأت إلى مصر إلا مضطرا ، وما نعلمه عن انطباعاته عن بلدنا وشعوره نحوها – كما يثبت ذلك الكثير من الخطابات التي كتبها لأصدقائه أثناء وجوده بيننا – إنه لم يحب مصر أبدًا فكان لا يطيق جونا ولا أهلنا ولا طبيعتهم فهو يعبر في كل خطاباته عن أمله في مغادرة مصر في أسرع مدة ممكنة ، وقد يرجع نفوره من بلدنا إلى ظروف فترة الحرب العالمية الثانية التي كانت فترة غير عادية بالنسبة للأجانب، وقد يرجع ذلك إلى ظروفه العائلية إذ وقع انفصاله عن زوجته خلال وجوده هنا ، وقد يرجع إلى الأمر الواقع الذى يواجه كل إنسان غربي يجيء إلى مصر، وهو

أن يحب مصر ويتعلق بما فيها من أشياء غريبة عما تقدمها له حضارته الغربية ، أو لا يحبها فلا يعرف كيف يتأقلم بما هو غريب عليه فالأجانب عندما يأتون إلى مصر يحدث لهم أمر من أمرين : إما أن يحبوا مصر وكل ما فيها ، وإما أن يكرهوها ولا يتحملون المعيشة فيها. ومن الواضح أن داريل كان من النوع الثانى كما تدل على هذا خطاباته وكذلك محتوى «رباعية الإسكندرية» المشهورة. ثم أنه لم يأت إلى مصر منذ مغادرته لها فى عام ١٩٤٥ وحتى وفاته فى ١٩٩٠ إلا مرة واحدة إذ كان مدعوًا من إحدى الجمعيات الأدبية فى مصر.

اعتمد داريل فى تأليف «رباعية الإسكندرية» على ذكرياته وانطباعاته عن مصر خلال الفترة القصيرة التى أمضاها بيننا، ثم اعتمد أيضا وبكثرة - كما اعترف للكثيرين من محاوريه - على كتاب إدوارد لين وأفكاره عن تقاليد وعادات المصريين وتأثر بمواقفه تجاه مصر والمصريين وإن كان قد بلغ فى العنصرية حدا تجاوز به لين بكثير . وكذلك اعتمد بنسبة أقل على كتاب أحد الإنجليز الذين أقاموا بيننا فى مصر فترة طويلة من الزمن - وسوف أتكلم عنه هنا فيما بعد - وهو جوزيف ماك فيرسون وكتابه «موالد مصر» الذى كان نشره على نفقته فى مصر فى عام ١٩٣٧. وكان اعتماد داريل على هذين المرجعين من أجل وصف بعض مشاهد لم يرها بنفسه وكأنه رأى ألا بأس بالاستعانة بما قدمه غيره .

إن أمامي الآن مجلـدًا ضخمًـا يقـرب عـدد صفحاتـه مـن الألـف ويحتوي على الروايات الأربـع التـي تتكـون منـها رباعيـة داريـل . وذلـك لأنـه بعـد أن نشـرت كـل روايــة علــى حــدة فــى أواخــر الخمسينيات نشرت كلها فى مجلد واحد عام ١٩٦٢ ، الطبعة التى لدى هى لسنة ١٩٩١ وهى الحادية عشرة ، كم من طبعات صـدرت لها منذ عام ١٩٩١ حتى الآن ؟ وكـم نسـخة تطبـع عـادة فـى كـل طبعة؟ لا أدرى ، ولكن ما هو مؤكد أن «رباعية الإسكندرية» عمـل ناجح ومحبوب عالميا فإسم لورينس داريل مرتبط دائما بـهذا العمـل بالذات . أننى قرأت العمل مرتين وفى كـل مـرة انبـهرت بأسـلوبه وبرسم الشخصيات التى فيه – وهى عشرات الشخصيات – وكلـها مرسومة بدقة شديدة سـواء فـى شـكلها الخـارجى أو فـى تركيبتـها النفسية ، ثم المحاور أو الأفكار الرئيسية التى فى الروايـات الأربـع إنها كلها متناسقة ومتماشية مـن أول صفحـة إلى آخـر العمـل وهـى تربط ما بين الشخصيات بعضها وبعض وكذلك بين الروايات الأربع.

أما بالنسبة للخلفية التى تقـع فيـها أحـداث الروايـات – وهـى مدينة الإسكندرية – فلا تتغير فى الروايات جميعها ، إذ أننا نـرى نفس الألوان ونشم نفس الرائحة ونسمع نفس الأصوات ونشعر بنفـس الجو ، وعندما نصل بالقراءة إلى نهاية العمل نـدرك أن «إسـكندرية داريل» تجسدت فى وجداننا بطريقة أقوى – إن أمكن ذلـك – مـن شخصيات الروايات الأربع . وطابع مدينة الإسكندرية هو من ضمـن

العناصر الرئيسية التى توحد كل رواية على حدة وتوحد كذلك ما بين الروايات الأربع التى تكون عملا عملاقا واحدا . كان هذا هو مقصد داريل : أن نقرأ رباعيته على أنها عمل واحد لا يتجزأ كما ذكر هو ذلك فى المقدمة . إن «رباعية الإسكندرية» عمل عملاق ممتاز يذهل- بدون شك- كل من قرأه وهو يقدم عالما قائما بذاته بصرف النظر عما إذا كان ما يصوره عن مصر والمصريين مطابقا للواقع أم لا .

وبالمناسبة إننى كلما قرأت عملا روائيًا غربيا عظيما مثل «رباعية داريل» زاد تأكدى من أن هؤلاء الكتاب ليسوا فنانين فحسب ، بل إنهم فى نفس الوقت مهندسون يبنون عملاً هندسيًا . والذى لا شك فيه هو أن موهبة الفنان وحدها لا تكفى لإنتاج عمل متميز فيجب أن تكون مع الموهبة رؤية محددة وواضحة للحياة وإحساس وفهم بالتكامل الشكلى للعمل الفنى . ولا يأتى هذا إلا بالتعرف على أعمال فنية كثيرة وفهمها واستيعابها ، وبالثقافة الواسعة ، وبمعرفة الماضى والحاضر التاريخيين ، وفهم التيارات السياسية واتجاهاتها فى عالمنا ، وأن يكون صاحب القلم يقظا وذا موقف ورأى وكلمة فى كل ما يدور حولنا من أحداث وآراء . وهو عمل شاق لا ينتهى يستغرق من الفنان أياماً وليالى طويلة ، وهذا ما لمسته فى جميع كبار الفنانين الغربيين- مثل داريل- وكبار أدبائنا مثل نجيب محفوظ ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس وجمال الغيطانى وآخرين على اختلاف

ميولهم السياسية ورؤاهم لحياتنا ، فالوصول إلى الامتياز في مجال الفن بالذات لا يأتي بسهولة أبدًا .

وعودة إلى رباعية داريل أود أن أذكر أنها ترجمت بأكملها إلى اللغة العربية وقام بترجمتها الأستاذ فخرى لبيب ونشرت الرواية الأولى منها- وهي «جوستين» - بدار المعارف سنة ١٩٦٩ ، أما باقي الروايات الثلاث- وهي «بالتازار» و«ماونت آليف» و«كليا» . فصدرت عن دار سعاد الصباح في عام ١٩٩٤ .

ما هو محتوى «رباعية الإسكندرية» «لداريل»؟

تقع أحداث الروايات الأربع في الإسكندرية ، وكل شخصيات الروايات أوربيون أو ناس يعيشون في مصر إلا أن أصلهم أوروبي وليس بينهم مصريون إلا أسرة نسيم حسناني وتتكون منه ومن أخيه فيروز ومن والدته ليلى. أما «القصة» التي تدور حولها الروايات فهو ما يحدث لهؤلاء الأجانب خلال وجودهم في مصر . وتسلط الأنوار في كل رواية على حدة على مجموعة من هؤلاء الأشخاص . أما ما يقع من أحداث في الروايات الثلاث الأولى فهي تتكرر في كل رواية والفارق بينها هو أن كل رواية تقدم الأحداث من زاوية مختلفة فتبدو وكأنها رواية مختلفة رغم أن الفترة الزمنية واحدة وشخصياتها هي هي . أما الأحداث فتبدو وكأنها مختلفة لأن كل راو له تفسيره الذاتي الخاص به لما عاشه وشاهده . أما الرواية الرابعة فتقدم تطورا

للأحداث ومرحلة زمنية تالية حيث تغادر معظم شخصيات الرواية مصر متجهة إلى بلاد الغرب .

كيف نظهر نحن المصريين فى رباعية داريل ؟ وما هو الانطباع الذى يأخذه عنا القارئ الأجنبى منها ؟

باختصار شديد من الممكن القول بأننا لا وجود ملموس لنا فى الرباعية رغم أن أحداثها كلها تقع فى الإسكندرية ونواحيها وهى منطقة العجمى وبحيرة مريوط . لقد ذكرنا من قبل أن الشخصيات الرئيسية كلها من الأجانب بل معظمها من أصل يهودى مثل جوستين-وسميت الرواية الأولى باسمها- فهى يهودية الأصل وتتزوج من مصرى ثرى تربى فى بلاد الغرب وتأثر بتفكير الغربيين وعاداتهم فيبدو وكأنه أجنبى عنا رغم أنه يمثل نموذجا لمصرى «متحضر» فى الرباعية وهذا المصرى تخونه زوجته جوستين مع أحد أصدقائه ، وتصوره لنا الرباعية على أنه عاش معذبا بحبه لزوجته فيظهر الزوج المصرى ضعيفا مسلوب الكرامة لا يستطيع أن يسيطر على مشاعره ولا على حياته . هذه هى شخصية نسيم حسنانى وهى أهم شخصية مصرية فى الرباعية . أما والدة نسيم حسنانى- واسمها ليلى- التى تظهر بكثرة فى الرواية الثالثة من الرباعية فنسمع عنها أنها أنشأت علاقة غرامية مع شاب إنجليزى كان قد زار بيتها وكان صديقا لولديها . فهى تخون زوجها المصرى الذى لم يمانع هذه العلاقة بل كان يشجعها .

أما أخو نسيم- وهو فيروز حسناني- فيحب إنجليزية لا توليه أى اهتمام ويظهر فيروز على أنه فاقد السيطرة على شعوره وتصرفاته. وتتطور شخصيته فى الرباعية إلى أنه يصبح متطرفا دينيا ويلقى حتفه على يد مصريين مجهولين .

هكذا يصور داريل الشخصيات المصرية الوحيدة التى تلعب دورًا- أدوارها ثانوية وبسيطة- فى أحداث «رباعية الإسكندرية» ويفهمنا داريل أن أسرة حسنانى هذه أسرة مصرية عريقة ومعروفة بين أسر الأقباط فى مصر وهم يمثلوننا فى الرباعية ولكن تمثيلهم لنا - وهكذا أراد داريل - غير مشرف وغير مطابق لما نعرفه عن الأسر المصرية سواء أكانوا من المسلمين أو الأقباط.

أما باقى المصريين فى الروايات الأربع فكلها شخصيات ثانوية بل هامشية وليس لها وجود بارز بالنسبة لأحداث الرباعية فمعظمهم مستخدمون أو شحاذون أو باعة لا رأى لهم ولا هدف إلا خدمة الرجل الغربى وتعظيمه والإعلاء من شأنه.

وتظهر فى الجزء الثالث من الرباعية شخصية مصرية تبدو مهمة بالنسبة للمجتمع المصرى إذ هو وزير فى الحكومة- ويسميه داريل «مملوك باشا» - ولكنه يغدر بمصلحة مصر ويخدم الأجنبى ويصوره داريل على أنه رجل مسلم متدين يحب سماع تلاوة القرآن الكريم

وقراءة المصحف الشريف ، ويفهم القارئ أن ما تعلمه هذا الشخص من دينه لم ينفعه في حياته ولا حياة من حوله .

ثم يصور داريل نفس هذه الشخصية بأنها تجمع المصاحف الأثرية الجميلة وأن لديها مجموعة مصاحف لا تقدر بثمن . ويفهم القارئ من هذا أن الدين الإسلامي لا علاقة له بالحياة فهو - في رأى داريل- لا يعلم ولا يهذب النفوس . وفي الرباعية شواهد أخرى كثيرة تؤكد هذا المعنى عن الإسلام . ثم يصور داريل الكثير من الموالد والاحتفالات والمواكب الشعبية ويطيل في تصويرها ويدقق في تفاصيلها ويفهم القارئ الأجنبي أن هذا هو جوهر الإنسان المصرى وهو أقرب إلى الحيوان الهمجي منه إلى الإنسان المثقف المسيطر على شعوره وحياته.

هذه هي- باختصار شديد- رؤية داريل للمصريين وهذه هي الصورة التي تقدمها لنا «رباعية الإسكندرية» لقراء الغرب ونظهر من خلالها كشعب متخلف ، لا علاقة له بالعلم والثقافة والتقدم ، ولم ينفعه دينه للترقي ، وهو شعب يميل إلى الهمجية والجريمة والقسوة فهو لا يعرف معنى الحضارة ، يبيع شرفه ومصلحة بلده بدون وعى أو من أجل مصلحة ذاتية لا تذكر ، شعب غدار لا يعرف المبادئ الأخلاقية ، شعب يعبد الغربيين ويخدمهم ، ومعظم الغربيين من أبطال الرباعية وهم - كما ذكرت - من الإنجليز أو ناس من أصل يهودى .

ومن الغريب في رباعية داريل هذه أن مؤلفها أمضى فترة من فترات الحرب العالمية الثانية في مصر- أي في بداية الأربعينيات - ثم أنه ألف ونشر الرباعية في أواخر الخمسينيات وكانت مصر في خلال هذه الفترة قد حصلت على استقلالها السياسي ثم أنها دخلت في حرب السويس وانتصرت فيها . وحرب السويس عندما وقعت هزت العالم كله وغيرت الكثير من المفاهيم التي كانت سائدة في الغرب. والسؤال هنا هو : ألم يؤثر استقلالنا السياسي ثم انتصارنا في حرب السويس في عام ١٩٥٦ على رؤية داريل لنا؟ إنه كتب الرباعية وكأنه يريد أن يفرض صورة سلبية للغاية عنا وهي صورة لا تطابق الواقع المصري إطلاقا إذ أن داريل لا يتفضل علينا بصفة واحدة إيجابية.

ثم ماذا يفهمه الغربيون عندما يرون أننا نشيد «برباعية» الإسكندرية في صحفنا اليومية ومجلاتنا الأسبوعية كلما جاء الحديث عنها ؟ إنهم يفهمون إما أننا راضون عن الصورة التي نظهر بها فيها أو يتأكدون انهم الأقوى حضاريًا لأن بعض المصريين يرددون ما يقوله الغربيون بدون التأكد من صحة أقوالهم أو خطئها . والوحيد الذي قرأت له نقدًا واعيًا للرباعية هو أديبنا أدوارد الخراط عندما كتب قائلا إنه بصفته إسكندرانيًا لا يتعرف على بلدته في إسكندرية داريل .

وبمناسبة إبداء الرأى : هل نؤهل شبابنا فى جامعاتنا على أن يبدى رأيًا شخصيًا ذاتيًا ونحترمه؟ إننى أعرف أساتذة فى كلية الآداب - لا داعى لذكر تخصصاتهم ولا الأقسام التى ينتمون إليها- يعدون الطالب راسبا إذا وجدوا فى ورقة إجابته رأيا غير رأيهم أو إشارة إلى بحث أو كتاب لم يذكروه فى محاضراتهم فهم يفرضون على الطالب آراء معينة وقراءات محددة ولا يدركون أنهم بهذه الطريقة يحددون بل يوقفون النمو الطبيعى لذكاء الطالب المصرى، المنتظر منه بعد تخرجه أن يكون صاحب رأى وصاحب موقف أيضا . ونفس هؤلاء الأساتذة يضعفون بمرور الزمن - موقفنا كشعب من صراع الحضارات القائم الذى ذكرته مرارا هنا، إذ أنه من المهم أن نظهر نحن المصريين فى صورة واضحة متكاملة الملامح مقنعة قوية حتى نحترم ويقام لنا حساب من ممثلى أى حضارة أجنبية . وهو ما ينتج عنه بمرور الزمن حوار بين الحضارات بدلا من الصراع القائم حاليا .

عودة إلى رباعية داريل نجد أن الصورة التى تظهر بها أرض مصر ومدينة الإسكندرية فيها صورة تقدم أرض مصر بحقولها الخضراء وسمائها الصافية وخصوصًا طلوع وغروب الشمس بطريقة جميلة رومانسية ولكننا نلاحظ أن وصف هذه المناظر الطبيعية خالية من المصريين ، وعندما يدخل داريل القارئ فى مدينة الإسكندرية نجد أن شوارعها مزدحمة وغير نظيفة وضجيجها كثير والذباب منتشر

فى كل مكان والأمراض متفشية بسبب جهل المصريين وهى ظاهرة عامة تجعلهم أقرب إلى مستوى الحيوان منهم إلى مستوى الإنسان المتحضر. يظهر ذلك فى عاداتهم اليومية وفى احتفالاتهم الشعبية ويخشى الإنسان الغربى أن يدخل الأحياء التى يسكنها المصريون إذ أنه غالبًا ما يهاجم هناك بقسوة غير آدمية ويسرق ما قد يحمله من ممتلكات . أما الفقر فيصوره داريل على أنه ظاهرة عامة أيضًا . ونفهم من تقديمه لنا أن لا أمل فى إصلاح حالنا . الخلاصة أن داريل يقدم لمصر صورة جارحة مؤلمة لكل مصرى يقرؤها. نرى ذلك بصورة خاصة فى الرواية الرابعة والأخيرة حيث نجد أن معظم الشخصيات الغربية غادرت مصر أو على وشك أن تغادرها وينفتح أمامها مستقبل ترتسم فيه أحلام قد تتحقق ومشاريع قد ترى النور ، وتترك هذه الشخصيات الغربية فى الرباعية مصر فى حالة ميئوس منها ، فالكاتب يصور لنا مجموعة من المصريين تحتفل بسنوية «السكوب» وهو رجل إنجليزى أحبوه واحترموه لدرجة التقديس حيث أقاموا له ضريحا يزورونه فيه . يوحى ذلك القارئ بأننا فى مصر نخلط بين الدين والخرافة ولا نستطيع إلا أن نقول أن صورة المصريين وموقفهم من الدين فى «رباعية الإسكندرية» مهينة لنا لأقصى درجة .

أما الشخصيات الغربية التى فى الرباعية- وهم كما ذكرنا فى الغالب من الإنجليز ومن اليهود- فهؤلاء أذكياء ومثقفون يحاولون

تعليم المصريين ومساعدتهم وإرشادهم وإصلاحهم ولكن جهودهم تظل بدون جدوى . هناك فى الرواية الثالثة- على سبيل المثال- شخصية دبلوماسى إنجليزى أمضى وقتا من الزمن فى شبابه فى مصر. ثم سعى إلى المجىء إلى هنا بعد أن أصبح سفيرا فى وزارة الخارجية الإنجليزية . يقدم إلى مصر ويبحث عن صديق شبابه نسيم حسنانى ولكنه لا يتلقى من نسيم إلا الغدر والخيانة واستغلال منصب صديقه لأن المصرى- حسبما يصور داريل- لا يعرف قيم الصداقة والوفاء واحترام الغير حتى لو كان متعلمًا تعليمًا رفيعًا.

والسؤال هنا هو : **هل يجب أن نعتبر كاتبا مثل لورينس داريل عدونا ؟**

والإجابة هى أن ذلك يجب ألا يحدث لأنه فنان ممتاز يفهم عمله ومتميز فيه ومن الممكن أن نتعلم منه كثيرا. وما صوره عنا هو رؤيته التى آلت إليه من تراثه وأدبه وقراءاته ولم يحاول أن يغيرها لأنه تعلم ألا يرى فينا إلا السلبيات فترسخت هذه الأفكار لديه ونتجت عنها «رباعية الإسكندرية» وتظهر الإسكندرية فيها مدينة تمثل الجهل والفقر والرجعية . الذى أراه واجبا هو أن نقيم حوارًا مع الغربيين نقدم لهم ولغيرهم فيه صورًا إيجابية لنا موجودة بين صفحات أدبنا .

وبمناسبة داريل فإننى حضرت مؤتمرًا فى الإسكندرية أقامته جمعية أمريكية هدفها تخليد اسم «لورينس داريل» فى شهر يونيو

من عام ١٩٩٦. وهـذه الجمعيـة تمولهـا مجـهودات ذاتيـة أى إنـها ليست تابعة للحكومة الأمريكية . والذين يقومون بتمويلها هم نفر من الأثرياء الأمريكان الذين يحبون داريل وفنـه وهمـهم أن يبقـى اسمـه متداولاً . ومع أن معظم هؤلاء من الأمريكان فإن من بينهم من ينتمون إلى جنسيات أخرى كثيرة. وهم يقيمون مؤتمرًا كل سنتين عن داريل مراعين أن يعقد فـى مكـان عـاش فيـه الكـاتب المعـروف فـترة مـن حياته .

وقد رأيت أنهم جـادون جـدا فـى عملـهم إذ أن الأبحـاث التـى قدموها كانت رفيعة المستوى . وبالمناسبة أذكـر أن مسـتوى أبحـاث المصريين التى قدمت لا تقـل عـن مستوى أبحاثـهم . المـهم ، أننـا نجدهم فـى سـاعة العمـل جـادين وأنـهم يحـترمون الآراء التـى قـد تعارض آراءهم فليس فى العلم تعصب بل هناك حوار يقـرب النـاس بعضهم إلى بعض .

أما فى الوقـت الخـارج عـن برنـامج قـراءة الأبحـاث فقـد قـاموا برحـلات كثـيرة لكـل مكـان ذهـب إليـه داريـل أثنـاء وجـوده فـى الإسكندرية فهم يحبون فنه ويحبون أيضا الرجل وحياته وعاداتـه . أذكر أننى زرت مع بعضهم المنزل الذى سكن فيه داريل أثناء وجوده فى الإسكندرية وأتذكر كم ابتهجوا لذلك وراحـوا يتذكـرون أنـه هنـا كان ينام وفى هذا المطبخ كان يحضر وجبات طعامـه وفـى الحديقـة هذه كان يستريح . ويحدث من وراء هذا كله نوع من التوحد ما بين

محبى الفنان والفنان نفسه إذ يعلمون انه جزء من تراثهم يفخرون به ويعتزون به ويريدونه أن يبقى .

إننى تأملت معهم بيت داريل بمنطقة محرم بك وتأملتهم هم أيضا ولاحظت تعبيرهم عن الفرحة والاهتمام برؤية هذا المكان . ثم تساءلت : لماذا لا يمول بعض أثرياء مصر جمعيات ثقافية مماثلة لتخليد أسماء شخصيات مصرية ساهمت فى إثراء تراثنا؟ إنهم بهذه الطريقة سوف يخلدون أسماءهم هم عن طرق تمويلهم لأمثال هذه الجمعيات في الوقت الذى يحافظون فيه على استمرار أسماء كبار كتابنا وفنانينا. إن الذين يقومون بمساهمات للحفاظ على تراثنا هم مؤسسات حكومية مثل الجامعات أو الهيئة العامة للكتاب التى تقوم بنشر الأعمال الكاملة لمعظم كبار مؤلفينا ، ثم المجلس الأعلى للثقافة الذى ينهض بإقامة احتفاليات للذكرى أو مؤتمرات دولية . ولكن هذه مجهودات مؤقتة تنتهى بانتهاء الاحتفالية بينما الجمعيات الخاصة هى التى يمكن بفضل حماسة أعضائها أن تكفل لمثل هذه الاحتفاليات استمرارية ودوما وذلك فى حد ذاته قيمة كبيرة إذ يتعانق فيها المال بالثقافة ، وهو ما يدعم موقفنا الحضارى بغير شك.

«مونتايجر» : رواية تثير الغضب

عندما نقرا رواية أجنبية ونستمتع بها يهيأ للكثيرين منا أننا نقرؤها ربما للتسلية أو للتعرف على قوم آخرين ذوى عادات وتقاليد وأفكار مختلفة عمّا لدينا ، أو قد يكون السبب ببساطة هو تحسين معرفتنا بلغة أجنبية أو توسيع رقعة تجربتنا الإنسانية . وقد لا يدرك الكثيرون أن نفس هذا العمل الفنى الذى يشد انتباهنا حتى نستمر فى قراءته حتى آخر صفحة فيه يمثل فى نفس الوقت عملاً سياسيا من الطراز الأول . وينطبق هذا على أى عمل فنى سواء أكان مسموعا أو مرئيا أو مقروءا . وقد يظهر ذلك بوضوح أكبر فى الرواية ، ويرجع ذلك إلى أن الرواية بحكم شكلها البنائى تقدم لنا تطورا لشخصياتها وللأحداث التى تسردها وللأفكار الرئيسية المتضمنة فيها وعناصر أخرى . وتمثل كل هذه العناصر رؤية المؤلف للحياة عموما وكذلك موقفه السياسى مما تدور حوله من أحداث . ونفهم من هذا أن أى رواية نقرؤها تعبر بجملتها عن – أيديولوجية – أو رؤية عامة للأمور . وغالبا ما تتفق هذه الرؤية مع الرؤية السياسية التى يتبناها الوطن الذى ينتمى إليه الروائى ، فأى روائى سواءً أراد أم لم يرد لابد أنه يتأثر بالمناخ الاجتماعى والسياسى الذى ينشأ فيه . وتتمثل هذه الأيديولوجية بالتالى فى القيم الأخلاقية والمعنوية التى يقدمها الكاتب الروائى فى روايته ، وفى المعتقدات الشعبية التى يقدمها

فيها ، وكذلك في السلوك العام لشخصياته ، وفي المواقف التي تتخذها هذه الشخصيات تجاه أي مشكلة تواجهها . ومن الممكن أن نقول - باختصار شديد - إن أي رواية نقرؤها تقدم لنا قصة تمتعنا بأحداثها وشخصياتها ، ولكنها في نفس الوقت تجسد عبر صفحاتها موقفًا سياسيًا أو رؤية سياسية أو أيدلوجية لما يحيطنا من أمور سواء كانت هذه الأمور مرتبطة بأمور شخصية أو وطنية أو عالمية ، فالرواية بالذات تعبر عن معتقدات قوم بأكملهم وهي لذلك تحتوي على ضمير الأمة .

وبالمناسبة أذكر أنني استمعت لمحاضرة كان قد ألقاها الناقد الإنجليزي تيرى إيجلتون في عام ١٩٩٠ بجامعة القاهرة وقال فيما قاله : إن الحكومة الإنجليزية في القرن التاسع عشر كانت مهتمة اهتمامًا خاصًا بإذاعة الرواية الإنجليزية عبر مستعمراتها ليس بهدف توفير جو من الشهرة للكتّاب الإنجليز من أمثال ديكنس وجورج إليوت وغيرهما من الأسماء المعروفة ولا لغرض انتشار اللغة الإنجليزية عبر العالم فحسب . بل كانت تصدر ضمن هذه الروايات أيضا رؤية سياسية وسلوكًا وتصرفًا اجتماعيًا وتأصيلا لتراث غربي إنجليزي . وكان هذا من ضمن الأساليب التي لجأت إليها إنجلترا لتعليم سكان مستعمراتها وتهذيبهم .

وبالمناسبة أيضًا نلاحظ - على سبيل المثال - أن اهتمام الغربيين بترجمات نماذج من أدبنا المصري والعربي إلى لغتهم يتزايد يوما بعد

يوم وأن ذلك الاهتمام يرجع فى أغلب الحالات إلى أنهم يريدون مزيدا من معرفتنا حتى يتخذوا منا موقفا يدعم موقفهم السياسى تجاهنا . ونفهم من ذلك أن مجال الترجمة يمس هو الآخر صميم الصراع بين الحضارات الذى نتمنى مرة أخرى أن يتحول إلى «حوار» بمرور الزمن .

وعودة إلى موضوعنا فإننى اخترت أن أتناول بالعرض بعض نماذج لروايات ألفها كتّاب إنجليز معاصرون وحرصت على أن يكونوا كلهم ممن عاشوا فترة من حياتهم فى مصر أى أنهم جميعًا عايشوا الواقع المصرى ولمسوه بأنفسهم فى فترة من حياتهم لنرى انطباعاتهم وتصورهم لمصر ولشعبها ولدين الإسلام ، وأريد أن ألفت نظر القارئ منذ البداية الى أن الصورة السلبية التى رأيناها موجودة عند إدوارد لين وعند لورينس داريل ترسخت أيضًا لدى الروائيين الإنجليز المعاصرين لدرجة أنهم يعبرون فى رواياتهم عن رؤى توارثوها بدلا من أن يصفوا الواقع المصرى الذى تعايشوا معه : هكذا تسيطر السياسة وتوجه رؤية شعب بأكمله حتى رؤية الفنانين فيه .

ولنتذكر هنا أن الفنانين أيا كان مجال عملهم فهم فى نهاية الأمر ليسوا إلا مواطنين عاديين يمتازون عن غيرهم بموهبة التعبير عن مشاعرهم ورؤيتهم فى مجالات تخصصهم المختلفة . وإن ظهرت موهبتهم فى الكتابة بحيث يستطيعون من خلالها أن يعبروا عن شعور ورؤية أغلبية الشعب الذى ينتمون إليه ، وغالبا ما يخدمون

بذلك مصالح دولهم وتوطيد موقفها وهى فى النهاية مصالحهم الشخصية . والتعبير عن رؤية وموقف معترف به ليس إلا نوعا من الولاء الوطنى . وإن أراد فنان أو كاتب أن يعبر عن رؤية جديدة قد تصلح من حال وطنه فيجب أن يكون معروفا عنه أولا أنه وطنى ويراعى مصالح قومه ، وأنه ليس عميلا لقوى أجنبية حتى تصبح رؤيته الإصلاحية صادقة ومقبولة ومقنعة . هل فكرنا لماذا يوجد فنانون وكتّاب صحفيون نحب أن نقرأ لهم وآخرون نتجنب قراءتهم عمدًا ؟ هل فكرنا لماذا أحرز كاتب مصرى مثل الأستاذ نجيب محفوظ - أطال الله فى عمره - جائزة نوبل فى عام ١٩٨٨ ولماذا نحب جميعا أن نقرأ له حتى ولو اختلفت ميولنا السياسية أو العقائدية ؟ الذى أراه أن ذلك يرجع إلى كونه كاتبا صريحا وصادقا فيما يكتب .

الرواية الإنجليزية الأولى التى اخترتها هى لروائية اسمها بينيلوبى ليفلى التى ولدت فى مصر فى عام ١٩٣٣ وأمضت فترة طفولتها فى مصر ، ولم تغادر بلدنا مع أهلها إلاّ بعد الحرب العالمية الثانية بفترة قصيرة ، ونعلم جميعا كم تؤثر فترة الطفولة بالذات على تكوين شخصية المرء وعلى رؤيته للأمور . ونفترض إذن أن هذه الكاتبة عاشرت مصريين وتجولت فى بلادنا خلال وجودها بيننا وأن ذلك ساعدها على تكوين رأى خاص عنا قد أثر على تصويرها لنا فى كتاباتها .

أما الرواية التى اخترتها لهذه الروائية فهى رواية «مونتايجر» التى نُشرت فى ١٩٨٧ والتى لم تترجم مع الأسف إلى العربية حتى الآن . إن هذه الرواية ليست في عظمة رباعية داريل من الناحية الفنية إلا أنها تجمع ما بين أسلوب متميز خاص بها ، وتقنية روائية تعتمد فيها الكاتبة على تيار الوعى ، ثم إنها تقدم رؤية واضحة مميزة وهى رؤية غربية بحتة للأمور وبالذات فيما يخص تصويرها لنا ، وبالمناسبة أحرزت صاحبة هذه الرواية جائزة إنجليزية مهمة منذ أن نُشرت ، ونفهم من وراء إجازتها أنها تشتمل على عناصر فنية ورؤية للأمور تتفق مع متطلبات القاعدة العامة من الإنجليز .

ما هو محتوى رواية «مونتايجر» ؟

تتناول الرواية قصة حياة امرأة تعمل صحفية ومعروفة بأنها صاحبة رأى مستقل ، وأنها ليست تقليدية فى حياتها الشخصية ، وأنها واسعة الأفق وتتقبل كل ما هو جديد ، وأنها مستقلة ماديا فى حياتها ولا تخضع لسيطرة أحد ، وأنها جريئة تحب المغامرة واكتشاف كل ما هو جديد .

تبدأ الرواية بهذه الشخصية النسائية التى اجتازت العام السبعين من عمرها وهى راقدة فى مستشفى تعانى من مرض لا شفاء له ، وتقرر هذه المرأة أن تسترجع ذكريات حياتها منذ طفولتها وأن تربط

جميع الأحداث المهمة فيها بأحداث سياسية أثــرت فيــها شـخصيًا وفى مجرى التاريخ العالمى . ومما يُسهل عليها هذا الأمر أنها عملت طوال حياتها فى مجال الصحافة الحرة أى أنها لم تُعيَن فى صحيفة تعمل بها . ومن ضمن الفترات المهمة جدا التى عاشتها هناك أربـع سنوات أمضتها فى مصر خلال فترة الحرب العالمية الثانية ثم نفـهم أنها عادت إلى مصر بعد ذلـك فـى رحـلات سياحية ، وهـذه هـى الفترات التى تهمنا هنا فى حياتها حيـث نجـد أن هـذه الصحفيـة المتحررة الذكيـة ، ذات الأفـق الواسـع تلاحـظ وتستنتج مسترجعة ذكريات إقامتها فى مصر ، ونعرض فيما يلى بعض أفكارها :

الانطباع العام الذى أخذته عن القاهرة وهو ما يظهر فـى خيالهـا كلما تذكرت عاصمة بلادنا هو رائحة القاهرة وهى مزيج من فضلات المواشـى والجـاز ، ثـم حـرارة الجـو الشـديدة ، وضجيـج «الـترام» وعربات «الكارو» وازدحـام النـاس فـى الشـوارع ، وعربـات النقـل البدائية التى تجرها الخيل أو الحمير، وطيور الحدأة التى تحلق فى السماء . هذا ما تتذكره الصحفيـة كلمـا ذكـرت أيامـها فـى القـاهرة وتقـول : إنـها لم تسـتطع أن تـهرب مـن هـذا العـالم الـذى يملـؤه الضجيج إلاّ عندما تدخل – على سبيل المثال – مكانا مثل الكنيسـة حيث تجد الراحـة والسـكون والطقـس المعتـدل المحتمـل ، وتقـابل بداخلـها قومـا مثلـها مـن الإنجلـيز وكلـهم متحضـرون ومحـترمون ومهذبون ومنظمون فـى سـلوكهم وصلواتـهم . وتشـير الكاتبـة بذلـك

وبطريقة غير مباشرة إلى التنـاقض الـذى يفـرق بـين حضـارة الشـرق الرجعية وحضارة الغرب الجديرة بالاحترام ، وتفهمنا أن الحضارتين متعايشتان فى نفس المكان وأن الفارق بينهما هو حاملو كل منهما أى أن المصريين يمثلون كل ما هو مرتبط بالجهل والرجعية بينما توجـد الحضارة حيث يوجد الإنجليز لأنها مرتبطة بأشخاصهم .

وتكثر الكاتبة من أمثلة هذه المقارنات غير المباشرة بـين الإنجلـيز فى مصر الذين يمثلـون الحضـارة والرقـى والمصريـين الذيـن يمثلـون الهمجية غير المفهومة عبر صفحات الرواية التى تفوق المائتى صفحة حتى تنطبع هذه الفكرة فى ذاكرة القارئ وتترسخ فيها بمرور الزمن .

ثم نفهم من الرواية أن الصحفية تعود إلى مصـر فـى السـبعينيات من هذا القرن فتجد أن القاهرة لم تتغير فى خـلال الثلاثـين سـنة ، وكل ما أضيـف إليـها هـو بعـض الفنـادق الأمريكيـة الحديثـة مثـل الشيراتون والهيلتون مع استمرار الازدحام فى المرور الخالى من النظام ، ثـم تتمنـى أن تعـود للقـاهرة التـى عرفتـها فـى المـاضى أى فـى الأربعينات التى كان لها رغم كل شيء طابع خاص بها.

والسؤال هنا هو : ألم تفكر هذه الصحفية فيما إذا كانت مصـانع قد بنيت وجامعات قد فتحت وأفكار تعبر عـن رؤيـة مصريـة تجـاه الأمور قد تكّونت فى خلال هذه الفترة من الزمن ؟ ألم تلـق نظـرة ولو من باب الفضول – على جريدة مثل «الإجيبشيان جازيت» التى

تقدم أخبارنا وتعبر عن وجهة نظرنا باللغة الإنجليزية في السبعينيات عند زيارتها السياحية لنا في ذلك الحين ؟

إن كل ما نفهمه من كلامها في الرواية أن مصر تتأخر بمرور الزمن بدلاً من أن تتقدم ، ونفهم كذلك أن استقلال مصر السياسي لم يفدها في شيء .

وتصف الصحفية منظرًا رأته من شباك القطار في الأربعينات من هذا القرن حيث رأت الطبيعة المصرية على ضفتي النيل وشاهدت الفلاحين وهم يقومون بعملهم اليومي وهم يرتدون الملابس الشعبية الملونة ثم تقول : إنه هيئ إليها أن المنظر كله لا ينتمي إلى الواقع الملموس ، فهو كالصورة المرسومة التي تعلق في المعارض أو على جدران المنازل ، وأن مصر كلها لا تمثل مكانا مهما يذكر بالنسبة للشخص الغربي ، فقد تكون مصر بلدًا جميلاً ولكنهم أي الإنجليز – لا يرونها لأن ناسها سلبيون لا يفرضون وجودهم .

وتتذكر الصحفية أيضًا أن الإنجليز هم الذين خلقوا في مصر خلال وجودهم هنا نوعا من الحياة المتحضرة ، أما مصر فلم تكن تمثل لهم إلاّ خلفية سلبية لحياتهم .

وأما بالنسبة للمصريين فتقول : إن أحوالهم لم تتغير وتضيف قائلة إنه حتى لو كان في مصر أي نوع من الجمال الطبيعي الذي قد يشد انتباه الغريب عنها فهذا الجمال يختفي برؤية أشياء مثل

التراب والمياه ، والقش وأوراق الأشجار ، والناس والحيوانات ثم الفقر الشديد الذى يتمثل فى الالتهابات التى يتعرض لها الأطفال والذباب المستقر حول عيونهم العمياء ، وما يُرى على ظهور الحمير من إصابات ناتجة عن قسوة أصحابها . وكل هذا يشير إلى جهل المصريين ورجعيتهم وإهمالهم ، ثم أن هذه الأوصاف تشير أيضا - بطبيعة الحال - إلى فقر غير طبيعى إذ نفهم أنه لا يكاد يصاحبه وعى من المصريين بما يعانون منه .

ونشعر أيضًا خلال قراءتنا لوصف مصر على هذا الشكل غير المرضى أن الكاتبة لا تعبر عن شعورها الشخصى فقط ، بل إنها تسعى إلى أن تنفر قارئها من مصر .

والسؤال هنا هو : ألم تدرك هذه الصحفية التى تُوصف بأنها واسعة الأفق أن من أكثر الأسباب التى تسببت فى تأخر مصر حضاريًا هو احتلال الإنجليز لنا طوال النصف الأول من القرن العشرين ؟ ألم تدرك أن المصريين كانوا فى هذه الفترة من الزمن كأنهم مكتفو الأيدى لا يستطيعون التصرف فى أمور بلدهم ؟ ألا تلاحظ - وقد نشرت روايتها فى ١٩٨٧ - أنه من أصعب الأشياء على كل بلد استعمره الإنجليز هو التخلص منهم ؟ إنها وبدون شك تحكى وتحكم على الأمور بحسب أفكار ترسخت لديها ، تحجب عنها الواقع الحقيقى وتحول بينها وبين الحكم المحايد الذى قد ينتج عنه حوار وتفاهم بين الحضارات المختلفة بدلا من الصراع

الحضارى الذى نعيشه اليوم ، والذى ستكون نتائجه سلبية وخطيرة للغاية لو استمر .

إننى أحب أن أوجه قارئى هنا إلى كتّاب مصريين كتبوا عما تغفله بينيلوبى ليفلى فى روايتها ، ويحضرنى كتاب أبى الدكتور حسين مؤنس «مصر ورسالتها» (١٩٥٥ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩) وكتاب «دراسات فى ثورة ١٩١٩» (دار المعارف ، ١٩٧٦) ، وهناك أيضًا كتابات الدكتور عبد العظيم رمضان . ثم أوجه القارئ أيضا إلى كتابات الصحفى البارز جمال بدوى رئيس تحرير صحيفة «الوفد» وإلى مقالاته التى تصدر كل خميس فى صحيفته . وبالمناسبة : أتمنى أن يعيد التليفزيون المصرى برنامج جمال بدوى عن تاريخ مصر المعاصر فالكثيرون منا يفتقدونه . ونحن جميعا فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الكتب والبرامج التليفزيونية حتى نفهم موقفنا وحتى نستطيع أن نصمد أمام كل من يصورنا بطريقة خاطئة .

وعودة إلى رواية «مونتايجر» نجد أن الصحفية كانت أثناء وجودها فى مصر فى الأربعينات هى وباقى الأوربيين ينتقلون فى الشوارع فى سيارات أو عربات «حنطور» وكل ما كانت تراه حولها مجموعة من المتناقضات لا يفهمها أى عقل بشرى فكانت القاهرة – حسب كلامها – تجمع بين أجناس مختلفة من الناس يتكلم كل واحد لغته ، وكأن مصر تفتقد لغة قومية .

وتذكر ليفلى أيضًا ، أن الناس فى مصر تموت بدون أن يسأل عنهم أحد ، وأن الشوارع مليئة بعربات «الكارو» التى تشدها الخيل والحمير وكذلك الدراجات ، وأن هناك الألوف الذين يمشون حفاة ، وعربات «الترام» مليئة بالناس لدرجة أنها كانت تشبه خلايا النحل .

وتقول أيضًا : إنه حتى الفترات التاريخية المختلفة التى مرت عليها مصر لا تخضع لأى نظام منطقى فهناك الفترة اليونانية ثم الرومانية ثم الفرعونية ثم القبطية ثم المسلمة (ونلاحظ أنها تخطئ فى تنظيم هذه الفترات التاريخية!) وتقول : إن نهاية كل ذلك أن متوسط عمر الفلاح المصرى هو ثلاثون سنة ، وأنه يعيش فى أكواخ فقيرة جدا ولكنه راض بها .

ونفهم من ذلك أن المصرى سلبى بطبيعته وأنه لا أمل فى أن ينهض ويتقدم أبدا وكأنه يعيش خارج التاريخ فى عالم غير العالم المعروف لدى الجميع - أى الغربيين . وتنظر الصحفية الإنجليزية إلى السماء وتلاحظ النجوم وتندهش وتقول لنفسها إنه غير ممكن أن تكون هذه النجوم هى نفس النجوم التى يرونها فى سماء إنجلترا .

الخلاصة أن كل ما تقدمه بينيلوبى ليفلى فى روايتها عن مصر هو صور سلبية للغاية ترتبط كلها بفقر المصريين وجهلهم ورجعيتهم ، ونلاحظ أنها لا تقدم شخصية مصرية واحدة ذات كيان ، فكل من

تعاملهم أثناء وجودها بيننا سفرجية ومستخدمون وشحاذون يملئون الشوارع .

ونجد أن الصحفية في الرواية على سبيل المثال تحاول أن تبعد عنها بائعًا مصريًا فى الشارع وتصرخ وتقول له «إمشى» وتراجع نفسها بعد ذلك وتدرك أنها لا تكلم المصريين إلا بفعل الأمر ، ثم تستنتج أن المصريين متعودون على الأوامر لأنهم خضعوا لأوامر غيرهم لمدة قرون من الزمن فهم مؤهلون لذلك بطبيعتهم .

إننى ذكرت فى تلخيصى لهذه الرواية فى البداية أن الكاتبة كانت تسعى إلى الربط بين حياة الصحفية الشخصية فى الرواية والأحداث السياسية والتاريخية المهمة التى حدثت فى نفس الفترة الزمنية . وقد نتساءل أين تضع الكاتبة مصر فى تاريخ العالم المعاصر ؟

إننا نقرأ فى أكثر من جزء من الرواية إسهابًا مطولاً يصف مصر أيام الفراعنة وغالبا ما ينتهى هذا الكلام بإشارة إلى اختفاء عظمة مصر والمصريين ، وكأن الموجودين منهم فى الأربعينيات من هذا القرن ليسوا من سلالة عصر الفراعنة . وتؤكد الكاتبة من خلال شخصية الصحفية التى فى الرواية أن المصريين المعاصرين يعيشون فى عالم خاص بهم خارج أحداث العالم الحقيقى وينطبق هذا حتى على المتعلمين منهم لأنه - حسب كلامها - كلما تكلم الأوربيون

وبالذات الإنجليز- عن حملة القائد الألماني روميل فإننا نجد المصريين لا يبالون بالموضوع ويعاملونه وكأنه موضوع هامشي ،وحتى بعد مرور الزمن لا يعرف المصريون حديثا عن الحرب إلا ما يتصل «بحرب إسرائيل» وهي لا تعلق على تلك الحرب بكلمة واحدة .

ونلاحظ في كلامها أنها تسمى المواجهات بين العرب وإسرائيل بحروب إسرائيلية ، وكأن الطرف المواجه لإسرائيل لا يستحق أن يّذكر .

وتشير الصحفية خلال الرواية إلى جانب الحرب العالمية الثانية مشكلة كوريا ومشكلة لاوس ومشكلة كوبا ، وحرب فيتنام لأنها كلها أحداث سياسية تاريخية كان الغرب طرفا فيها فهى لذلك جديرة بالذكر .

وتذكر في جزء آخر من الرواية سنة ١٩٥٦ على أنها كانت سنة مهمة تاريخيا لأنها كانت – حسب كلامها – «سنة القناة وسنة المجر».

وتقصد هنا سنة الاعتداء الثلاثي وتحرير قناة السويس ، ولكنها لا تعلق على ما تسميها «بحرب القناة» بكلمة واحدة وإن كانت تبدى رأيها بإسهاب فى دخول القوات الروسية فى المجر . إننا فى هذه النقطة بالذات نلاحظ أنها تتفادى الكلام عن مصر المعاصرة حتى تجعلها تبدو كما لو لم تكن لها مكانة فى العالم لها تأثير فى

أحداثه . ونحن نعلم – بطبيعة الحال – كيف أثرت حرب السويس على مكانة إنجلترا بصفة خاصة في العالم كقوة سياسية كبرى ، وكيف كان تحرير مصر بعد ثورة يوليو بداية لتحرير شعوب أخرى كثيرة كانت مستعمرة . تغفل الروائية كل ذلك لأنه يتعارض مع رؤيتها للأمور وهى تريد أن تفرض على القارئ هذه الرؤية الغربية .

وبمناسبة قناة السويس وتحريرها أذكر أننى تعرفت على ناس إنجليز أثناء وجودى فى إنجلترا وأذكر أنهم عندما عرفوا أننى مصرية قالوا لى باستعلاء شديد: «أنت من مصر البلد التى أخذت منا قناة السويس؟ وماذا فعلتم بالقناة بعد أن أخذتموها؟» . وفهمت عندئذ أن الكثيرين من الإنجليز وبالذات المتحفظين منهم لم يتقبلوا أبدا فكرة تحررنا منهم لأن السؤال الذى وجه إلى كان فى الثمانينيات ومع ذلك فإنهم كانوا يعتبرون مصر والمصريين والقناة من ضمن ممتلكاتهم الشخصية التى انتشلت منهم .

وعودة إلى رواية بينيلوبى ليفلى نلاحظ أن الكاتبة ورغم أنها تحاول استبعاد مصر من أى حدث سياسى أو تاريخى مهم وقع فى القرن العشرين فإنها لا تعامل اليهود نفس المعاملة فتقول – على سبيل المثال – إنها عندما ذهبت فى عام ١٩٤١ لزيارة القدس أقامت فى فندق صغير كان يديره يهوديان كانا قد باعا جميع ممتلكاتهما فى أمريكا فى العشرينيات من هذا القرن ثم سافرا «الأرض المقدسة» بكل مدخراتهما فى انتظار عودة المسيح التى كانت منتظرة فى عام

١٩٣٣ . وعندما لم يأت المسيح فى التاريخ الموعود استمرا فى العيشة هناك متقبلين الأمـر الواقـع . ثـم تصـف المكـان بأسـلوب رومانسـى جميل ، وهى تمهد بذلـك لإنشـاء دولـة إسـرائيل فيمـا بعـد وكـأن إنشاءها كان حلمًا سلميًا جميلاً .

ونفهم من هذا – بطبيعة الحال – أن إسرائيل ذات منزلة خاصة عن الغربيين وأنها جديـرة بـالذكر فـى التـاريخ العـالمى مـن المنظـور الغربى .

إن رواية «مونتايجر» لبينيلوبى ليفلى رواية جميلة مـن الناحيـة الفنية ومتماسكة ومتكاملة فيما يخص الرؤية التـــى تقدمـها للعـالم . وكما قلت فى بداية حديثى عنهـــا إنها تقدم رؤية غربية بحتة أى أنها لا تأخذ فى الاعتبار إلا ما هو غربى أو ما يؤكد أهميـــة الغـرب ويرسخ قيمه ، ونحن المصريين – أو العرب عمومًـا – لا وجـود لنـا فيها على الإطلاق .

إن نسخة الرواية التى بين يدى هى طبعة ١٩٨٨ أى أنها صدرت سنة واحدة بعد نشر الرواية للمرة الأولى وهى الطبعة السادسة لها ، والسؤال هنا هو : كم طبعة صدرت لهذه الرواية فى السنوات العشرة الماضية ؟ كم من قرأ وتتبع تصويرنا السلبى جدا فيها ؟

أليـس الأدب وسـيلة أخـرى لإنتشـار أفكـار وسياسـات ومواقـف محددة وبالذات عند ناس يقـرءون الكثـير مثلمـا هـو شـأن الغربيـين

جميعا ؟ هل من المعقول ألا يقتنع كل قارئ غربى بما تقوله الروائية الإنجليزية ليفلى فى روايتها وبالذات عندما يعلم أنها عاشت بنفسها فترة من الزمن فى مصر ؟

إن هذه الرواية لابد أن تثير الغضب فى أى مصرى يقرؤها لأنها مثل رباعية لورنس داريل ـ عنصرية لأقصى درجة ويرجع السبب فى ذلك ـ كما ذكرت من قبل ـ إلى أفكار ترسخت فى أذهان الغربيين وتوارثوها جيلاً بعد جيل ثم عرضوها فى أعمالهم الفنية .

أوليفيا مانينج : صورة غير مشرفة

إن الكثيرين من الغربيين يتهموننا بأننا نعيش في الماضى لأننا مازلنا نتفاخر بماضينا حينما كان العرب على قمة الحضارة العالمية . إنهم يتهموننا بأننا ننسى الحاضر ونمضى وقتنا بالتفاخر بما مضى . ويوجه ذلك الاتهام لنا سواء فى مصر أو فى سائر البلاد العربية ، إننى أقر بأن بعضنا يفعل ذلك ولكننى أرى أيضا أن بعضنا الآخر واع تماما بماضيه وكذلك بما يحدث اليوم فى العالم من تطورات فى جميع الميادين وهو يواكب العصر بإدراك وبقوة ، وقراءة أى صحيفة من صحفنا اليومية يثبت كلامى هذا لكل من يريد أن يفهم حاضرنا .

إن هؤلاء الغربيين يتهموننا بتمسكنا بأفكار قديمة وهم أنفسهم يعانون من هذا الداء ربما أكثر منا لأن معظم ما يقدمونه من صور لنا فى أدبهم المعاصر مبنى على أفكار قديمة ترسخت لديهم عبر السنين ولا يحاولون أن يغيروها وكأنهم مصممون – وهذا أملهم – على أن نبقى دائما الضعفاء وهم الأقوياء ، وأن تقيم حضارتنا وموقفنا الثقافى على أنه هو الضعيف وحضارتهم وموقفهم الثقافى هو الأقوى وهو المرشد وهو النموذج الأول والأفضل والأوحد . وهذا موقف تتخذه جميع الدول الغربية تجاه عالمنا وهو يعبر عن رؤية سياسية واضحة تشمل الحضارات والثقافات والأديان المختلفة ، ولهذا السبب كنت

قد أشرت من قبل إلى أن أى رواية نقرؤها لابد أن تكـون سياسية فى جوهرها .

والرواية التى أقدمها الآن رواية إنجليزية معاصرة أخرى نجد صورتنا فيها سلبية للغاية وهو ما تعوّدنا أن نجده فى معظم أعمالهم الفنية ولذلك كنت ذكرت فى بداية كتابى لهذا الموضوع أننى لم أندهش كثيرا عندما قرأت فى كتاب «الغرب والإسلام» للأستاذ رجب البنا أنهم فى الغرب اليوم يتخذون قراراتهم السياسية الكبرى معتمدين فى ذلك على صورة أو فكرة راسخة فى أذهانهم لا تطابق الواقع الذى نعيشه اليوم . وهذه الفكرة مبنية أساسًا على أن الإسلام – وهو دين الأغلبية لدينا – لا يولدٌ فى معتنقيه إلا العنف والقسوة ، وأنه يشجع الرجعية ، وأنه يجب لذلك الاحتراس منه ، فالكثير من هذه الأفكار مأخوذة من الأدب الغربى .

الرواية التى أمامى الآن هى لكاتبة إنجليزية معاصرة أسمها أوليفيا مانينج ، وهى ثلاثية اسمها «ثلاثية الشرق» وتتكون من رواية «شجرة الخطر» (١٩٧٧) ، ورواية «المعركة» (١٩٧٨) ، ورواية «الخلاصة» (١٩٨٠) . ولم تترجم هذه الروايات للعربية ، وليتها تُرجمت حتى يتعرف كل مثقف لدينا كيف يصوروننا فى الأدب الغربى حتى نستطيع محاورة هذه الصورة الراسخة التى نادرا جدا ما تتغيّر ، فكيف نستطيع أن ندخل حوارًا بناءً معهم بدون أن نتعرف تماما على ما يقولونه عنا ويؤمنون به ؟

إن الطبعة التى بين يدى هى طبعة ١٩٨٢ وهى الطبعة الرابعة لهذه الثلاثية . ولاحظت أنها قد طبعت فى كل من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية فى نفس الوقت . تُرى كم من مرة طُبعت فى السنوات الخمس عشرة الماضية ؟ لا أدرى ، ولكن من المؤكد أن الناشرين فى الغرب لا يتأخرون فى إعادة نشر مثل هذا العمل المتقن . والناشر هناك تاجر ماهر يخلق القارئ عن طريق الدعاية الملائمة ثم التسويق اليقظ ولا يُتعب عميله فهو يخدمه ليكسبه .

والجدير بالذكر هنا أن أوليفيا مانينج نالت جائزة إنجليزية عام ١٩٧٧ عن الرواية الأولى فى ثلاثيتها ، ومعنى أنها نالت جائزة عن روايتها هو أنها - مثل بينيلوبى ليفلى - حققت فيها شيئين أساسيين : أولهما أنها قدمت عملا فنيا ممتازا من ناحية الأسلوب الذى كتبت به عملها والبناء الفنى الذى قدمت فيه . وثانيا - وهذا مهم جدا بالنسبة للغربيين - أنها قدمت رؤية غربية ترضى الأغلبية العظمى من القراء ثم أنها تقدم الأمور من منظورهم ، وغالبا لا تتعارض هذه الرواية مع الخط السياسى الرئيسى - أو ما نسميه أيضا بالأيديولوجيا - لديهم . ولاحظت مرارا - كما لاحظ غيرى - أن البلاد الغربية قد تختلف فيما بين بعضها والبعض ولكنهم فى ساعة الجد يتحدون دائما ويصبحون يدًا واحدة ، وهل هناك أهم من الرؤية التى تحكم وتحدد من خلالها الأمور والموقف الحضارى؟

من هى أوليفيا مانينج ؟

إنها كاتبة إنجليزيـــة مـن أصـل أيرلنـدى لهـا مـا يفـوق العشـرة المؤلفات . إنها جاءت إلى مصر فـى فـترة الحـرب العالميـة الثانيـة مرافقة لزوجها وهو محاضر فـى الأدب الإنجليزى . لقـد أتيـا مـع الإنجليز الكثيرين الآخرين فى البلقان هربا من خطر الحرب . وكان زوجها يعمل فى مجال التدريس فى مصـر حيـث عمـل فـى المركـز الثقـافى البريطـانى . وكـان كلاهمـا علـى صلـة مـع بـاقى المثقفـين الإنجليز فى مصر ، ثم إنهما بدون شك تعاملا مع المثقفين المصريين فى الأربعينيات ، كما أن زوجها كان أيضا ممن اشتركوا فى تحرير بعض المجلات الثقافية الإنجليزية التى كانت تصدر فى مصـر فـى ذلك الحين مثل مجلة «أورينتيشونس» (وترجمتها «اتجاهـات») ومثل «السيتاديل» (وترجمتها «القلعة») ومجلات أخـرى كـانت تطبع فى مصر بالإنجليزيـــة فـى ذلـك الحـين . ويقـال إنـهم كـانوا يشجعون المصريين فى الكتابة فيها . وأوليفيا مانينيج نفسها كـانت تنشر فى هذه المجلات ثم أنها كـانت تكتـب مـن قبـل قدومـها إلى مصر .

قد يكون من المهم هنا أن نتذكر أن الإنجليز عمومـا عندمـا كـانوا يقيمون فى مصر خلال فترة الاحتلال كانوا يكونون جاليـة مترابطـة ومتضامنة نادرا ما كانت تختلط بالمصريين ، وكانت هذه هى عادتهم وكانوا يستريحون لها وكـانت لهـم حيـاة اجتماعيـة خاصـة بـهم ،

ونواد لهم قلّما يدخلها مصرى . فمن ناحية كانت هذه هى تعليمات حكومتهم لهم أى ألا يختلطوا بالمصريين ، ثم إنهم كانوا من تلقاء أنفسهم يؤمنون بأنهم أحسن وأرقى من المصريين لمجرد أنهم إنجليز ، فلا يحاولون الاختلاط بنا . وكانت هذه القاعدة متبعة من قبل جميع الإنجليز أيا كانت طبقتهم الاجتماعية أو مستواهم الثقافى، وكان موقفهم من المصريين ومعاملتهم لهم حينذاك مما جعلهم غير محبوبين بيننا .

وسمعت كثيرا من مصريين عاشروا الإنجليز وقت وجودهم بيننا أنهم كانوا يندهشون عندما يرون أن الإنجليز كانوا يعتبرون مصر ملكا لهم ولا يتصورون أنهم سيغادرونها فى يوم من الأيام .

وإذا كان ما ذكرته حول تجنب هؤلاء الإنجليز للتعامل مع المصريين هو القاعدة العامة فإن ذلك – على ما سمعت – لم يمنع بعض الاستثناءات التى تتمثل فى المشتغلين بالتعليم المدرسى والجامعى الذين كانوا وثيقى الصلة بحياة المصريين وكانوا أحيانا حريصين على التعرف على دخائل المجتمع المصرى ، وذلك وفقا لتعليمات غير منصوص عليها من قبل حكومتهم . هذا ما سمعته .

وأذكر بمناسبة الإنجليز المشتغلين بالتدريس والفنانين الإنجليز فى مصر أيام الاحتلال كتابًا ألفّه بالإنجليزية د. مرسى سعد الدين بالاشتراك مع الإنجليزى جون كرومير اسمه «تحت سحر مصر» (١٩٩١) يجمعان فيه أسماء جميع الروائيين والشعراء الذين عاشوا

فترة حياتهم بيننا والظروف التى عاشوا فيها ، ومن المؤكد أن مثل هذا المؤلف لابد أن يهم كل من يعمل فى مجال الأدب المقارن .

ما هو محتوى روايات «ثلاثية الشرق» ؟

تقع أحداث الثلاثية فى أنحاء مصر أى بين القاهرة والإسكندرية والسويس وحلوان وطنطا ثم منطقة العلمين . وهى تسرد قصتين متوازيتين ، أحدهما قصة عسكرى إنجليزى جُند ليحارب فى معركة العلمين ، ثم قصة زوجين إنجليزيين هاربين من أوربا ـ من اليونان بالتحديد ـ ولاجئين إلى مصر حيث يبحث الزوج عن عمل فى مجال التدريس لكى يعيشا . ونتابع فى الروايات الثلاث ما يقابل هذه الشخصيات الإنجليزية الثلاثة خلال وجودهم فى مصر . ونلاحظ أنهم لا يعاملون إلا أمثالهم من الإنجليز ، أما المصريون فليس لهم وجود ملموس فى الثلاثية فمصر بالنسبة للإنجليز جميعا مجرد خلفية لأحداث حياتهم ولا يتعاملون مع المصرى إلا لو لزم الأمر لذلك.

وبما أن ما تصوره الروايات الثلاث عن مصر لا يختلف فيما بينها فإننى سأختص بحديثى الرواية الأولى فقط . وقبل أن أبدأ أحب أن أقول إن ما نجده فى رواية مانينج فى نهاية الأمر لا يختلف كثيرا عما وجدناه فى رواية ليفلى، إلا أننى شعرت أنها أقل قسوة فى الحكم علينا كما سأشير إلى ذلك خلال تناولى للرواية . ولذلك أحب

أن أكرر ما قلته من قبل أن معظم الكتاب الإنجليز لا يحاولون أن يصوروا الواقع المصرى كما هو أمامهم ولكنهم يستندون فى تصويرهم على أفكار ترسخت لديهم منذ زمن طويل - أى منذ أيام إدوارد لين وأمثاله وربما قبل ذلك - وهى أفكار قديمة وقليلة الصلة بالواقع ولكنهم معجبون بها لأنها تريحهم وتصورهم فى موضع القوة دائما ، ثم أنها تمثل أساس رؤيتهم الغربية للحياة .

تبدأ رواية أوليفيا مانينج «شجرة الخطر» (١٩٧٧) بوصول الجندى الإنجليزى - واسمه «سيمون» من إنجلترا إلى القاهرة حيث جند فى الجيش الإنجليزى فى مصر ومن المنتظر أن يلحق بفريقه فى الساحل الشمالى غرب العلمين . إنه شخص صغير السن وبسيط إذ أنه لا يعرف من العالم كله إلا قريته بإنجلترا ، وجاء من هناك رأسا إلى هنا . وكل ما يلاحظه «سيمون» هذا عند وصوله إلى مصر أشياء غريبة عنه وجديدة عليه . ونلاحظ أن ما يلفت نظره يتضمن فى حد ذاته نقدا لنا ولعاداتنا ويرى «سيمون» فيما رآه ما يلى فى الأربعينيات من هذا القرن :

- وهو فى القطار المتجه من السويس إلى القاهرة لا يرى خلف نافذة القطار إلاّ مناطق عشوائية تدل على فقر مدقع .

- إن الناس بالقطار كثيرون وتطفح منهم رائحة كريهة هى مزيج من العفونة والعرق .

– إن الحر لا يطاق حتى أن «سيمون» يشعر بأنه يذوب داخل ملابسه .

– يحاول «سيمون» أن يفتح نافذة فى القطار الذى ينقله من السويس للقاهرة ويمنعه من ذلك مصرى ولم يظهر له هذا المصرى أى ذوق فى معاملته له .

– يلاحظ فى شوارع القاهرة «أشباحا» ترتدى ثيابا بيضاء مثل قمصان النوم وهى تجرى مرتدية «شباشب» . أما السيدات فلا ترى تقريبا إذ كلها ملفوفة فى عباءات سوداء . والمكان كله قذر ومقزز .

وبالمناسبة لا تظهر خلال الرواية كلها سيدة مصرية ذات قيمة رغم أنه من المعروف أن المرأة المصرية فى الأربعينيات من هذا القرن كان لها صوت ووجود .

– كانت الرائحة فى المعسكر بحلوان لا تحتمل فى رأى «سيمون» ، ثم إن المكان كله يملؤه البق . ويقول له أحد زملائه الإنجليز إن هذه الحشرات تعيش مئات السنين وأنه من الصعب التخلص منها وهى تتسبب فى عذاب أليم لهم . وكل ما حوله كان يوحى لسيمون بالشر والموت .

– يلاحظ أن الذباب يملأ البلد وهو أكثر من الطعام فى الأطباق .

– ويرى أطفالا صغارا يخيَّل إليه في أول الأمر أنهم كحّلوا عيونهم ثم يتضح له بعد ذلك أن ما حول عيونهم إنما هو ذباب مكدس .

– وأن في حي «جاردن سيتي» منازل توحي بماض ثرى ولكنها في حالة يصعب إصلاحها ، وأن القاهرة كلها في تدهور مستمر .

– إنه يؤمن بأن الإنجليز أتوا إلى مصر ليعلموا شعبها ويحضّروه ولم يفهم لماذا لا يُقدِّر المصريون هذا الجميل من قبل أكبر وأعظم شعب في العالم .

– يخدم في بيوت الإنجليز سفرجية كثيرون ولكنهم يتصرفون كما لو كانوا نياما غير واعين بما يجرى حولهم .

– المصريون يتكلمون الإنجليزية ولكن لغتهم الإنجليزية لا تعرف القواعد النحوية .

– منظر أهرامات الجيزة لم يبهره ، أما نهر النيل فلونه غير جميل بسبب الطمى ، ومصر كلها ليس فيها جمال طبيعي فيبدو «لسيمون» أن معظمها صحراء مجردة من الحياة . أما الشمس فهي في مصر عدوة الإنسان تسلبه من قوته وتضعف إرادته . وقد يكون في مصر جمال طبيعي ولكن عناصر الجهل والمرض والرجعية تقضى عليه فلا يظهر . ونذكر أن هذا نفس رأى بينيلوبي ليفلي .

– لم يجد «سيمون» سمة التحضر إلا فى الإنجليز الذين يقابلهم فى مصر ويتكلم معهم وهم يمثلون العنصر الوحيد الذى يجسد فى مصر الحياة والذكاء والتحضر .

وقائمة السلبيات التى يلاحظها «سيمون» طويلة جدا لدرجة أنه يشفق على مصر . ونلاحظ أن الكثير من هذه السلبيات مبالغ فيها .

والسؤال هنا هو : هل هذا تصوير حقيقى للواقع المصرى فى الأربعينيات تقدمه كاتبة إنجليزية مثقفة وواعية يعمل زوجها فى مجال التعليم فى مصر ؟ أليست أوصافها بالأحرى محاولة لفرض أفكار ترسخت لديها منذ صغرها على واقع مصرى لا تريد أن ترى فيه إلا علامات الجهل والرجعية والبدائية ؟ أيا كان الرد الصحيح فهذه هى الفكرة التى ما زالت تنتشر فى بلاد الغرب عنَّا والتى ما زالت تؤثر على موقفهم منا سواء أرادوا أو لا ، وسواء وضحوا ذلك الموقف لنا أو لم يوضحوه .

وإذا حاولنا أن نتتبع الفقرات الإخبارية على شاشات التليفزيون الأجنبية اليوم . سنجد أن كل تركيزهم على الظواهر السلبية لدينا . والغرض من ذلك هو تثبيت صورة الجهل والرجعية فى ذهن المشاهد الغربى . هل نتذكر «الهوجة» الإعلامية التى أقاموها فى الغرب عن ظاهرة ختان الإناث فى مصر منذ ما يقرب من سنتين ؟ هل تمثل هذه الظاهرة مكانة المرأة المصرية فى مجتمعنا اليوم ؟ لقد صدق

إدوارد سعيد فى كتاب «التغطية الإعلامية للإسلام» - الذى أشرت إليه فى بداية كتابتى فى هذا الموضوع - حيث قال إنهم لا يظهرون إلا ما يسىء لسمعتنا . والحمد لله لقد منع ختان الإناث مؤخرا .

وعودة إلى رواية أوليفيا مانينج نجد فيها ما يلى :

- تعمل إحدى الشخصيات الإنجليزية - واسمها «هاريت» - فى السفارة الأمريكية بالقاهرة. وضمن زملائها هناك شاب مصرى اسمه «إقلال» (هكذا يظهر اسمه فى الرواية ولاحظت أن معظم الروائيين الأجانب يؤلفون أسماءنا . ومن ضمن ما يقوله هذا المصرى - الذى يعمل مترجما - «لهاريت» ما يلى:

- «ماذا تفعلون (ويقصد الإنجلين) ببلادنا يا سيدتى؟ إنكم أتيتم لكى تحكمونا وتحمونا وعندما يأتى العدو (ويقصد الألمان) تهربون من مصر وتتركوننا». وبذلك يعبر المصرى المثقف عن حاجة المصريين لحماية الإنجليز.

- إن الألمان سيدخلون مصر قريبا وإنه هو شخصيا بدأ يدرس اللغة الألمانية. ويظهر المصرى بذلك أنه لا يعرف الوفاء لمن يخدمه أى الإنجليز .

- «وحتى حينما يؤكد لنا الألمان بأنهم سيمنحوننا استقلالنا فنحن المصريين نسينا كيف نحكم بلدنا . أما المستعمرون فكلهم مثل غيرهم ونحن متعودون عليهم وعلى أساليبهم» . ويوضح المصرى هنا أن المصريين فى حاجة دائمة إلى من يحكمهم ويرشدهم .

- وتلاحظ «هاريت» أن المصريين عموما لا يفهمون بل لا يقدرون خطورة أيام الحرب هذه (وتقصد الحرب العالمية الثانية) فهم دائما مبتسمون وكأنهم فى عالم غير عالم الواقع. ثم إنه حتى المتعلمون منهم ليسوا على دراية بالأحداث السياسية العالمية.

- تسأل «هاريت» أحد المصريين إن كان يعتبر الإنجليز مستغلين للمصريين ، وإن كان هذا ما يعتقدونه فلماذا لا يقومون بثورة ضدهم؟ فيجيبها المصرى بأنهم فى مصر يشعرون بالاستغلال الإنجليزى ولكنهم ينتظرون قدوم الألمان فى البلد وحينئذ سوف «يذبح» المصريون الإنجليز . ويعبر المصرى بذلك عن الروح العدوانية وقسوة قلبه إذ أنه «سيذبح» زميلته الإنجليزية فى أول فرصة تتاح له.

ونلاحظ فى الأمثلة التى ذكرتها أن فكرة الجهل واللامبالاة وعدم تقدير الأمور المهمة والجبن والقسوة والعدوانية ، كل هذه الأفكار يربطها الغربيون بنا منذ أجل بعيد وهى تتجسد فى مثل هذه الروايات فى كل شخصية مصرية تظهر على صفحات الرواية. ومن الواجب أن نذكر هنا مرة أخرى أنه حتى لو وقعت أحداث رواية غربية فى مصر فإننا لا نرى أى شخصية مصرية تقوم بدور مهم فأدوار المصرى فيها دائما ثانوية ، بل هامشية ، إذ أن هذه الروايات مليئة بالمستخدمين المصريين مثل السفرجية والبوابين وسائقى السيارات وهم يظهرون على صفحات هذه الروايات لخدمة الشخص الغربى وطاعته وكأن خدمة الغربى أمر طبيعى لدينا.

وعودة إلى روايتنا نجد أن هناك شخصية إنجليزية أخرى يجب الإشارة إليها وهي شخصية «جاى برينجل» وهو اللاجئ الإنجليزى الذى يبحث عن عمل ويجده فى تدريس اللغة الإنجليزية لتلامذة مصريين بالإسكندرية. ونجد أن هذا الإنجليزى يتفانى فى التدريس لهؤلاء الشبان المصريين ، ثم إنه أحيانا يجازف بحياته إذ أن المقر الذى يدرس فيه قريب من منطقة الحرب. وكيف يعاملونه هؤلاء المصريون؟ إنهم لا يريدون دراسة الأدب الإنجليزى بل يفضلون اللغة الإنجليزية البسيطة التى قد تنفعهم لمزاولة التجارة. وهم يتغيبون عن الدروس ولا يلتزمون بها ويحاولون ابتزاز مدرسهم حتى ينجحهم. ثم ينقطعون عن حضور الدروس عندما سمعوا أنباء تفيد أن الجيش الألمانى على وشك أن يدخل مصر فراحوا يدرسون اللغة الألمانية مما يدل على أنهم شبان أنانيون سطحيون لا يبحثون إلا عن مصلحتهم ولا يعرفون معنى القيم الإنسانية.

هل يظهر الإسلام فى الرواية ؟

نعم، يظهر الإسلام فى الرواية مرتبطا بالعادات المصرية، وكل ما هو عادة مصرية يشار إليها على أنه «تقليد إسلامى» مثل ارتداء الرجال للجلاليب ، أو أن الحريم داخل المنازل يجب ألا يراها الرجال . ثم إن الشخصيات الإنجليزية لا تبدى أى إعجاب عند رؤية الجوامع فتبدو لهم بدون لون مميز ولا شىء يلفت النظر فيها .

أما الآذان الذى يسمع من الجوامع المختلفة عند مواعيد الصلاة فإننا نرى إحدى الشخصيات الإنجليزية تسمعه وتتعرف على كلمة «أكبر» فيذكرها ذلك بأن العرب عموما يحبون سرد حكايات تراثهم على مكبرات الصوت . والأكبر من هذا – كما شرح لها من قبل – هو بطل كبير أنجبه ملك عظيم من أم سودانية. وبما أنه ولد بلون أكثر سمرة من أخويه فقد اضطر أن يثبت وجوده بالقيام بأعمال بطولية . ولكنه كان كسولاً جدًا وكثيرا ما كان يرقد فى خيمته فلا يدفعه للقيام بعمل بطولى إلا حبيبته وكانت آية فى الجمال .

هكذا تصور الرواية الإسلام وأظن أن عدم إبراز الدين الإسلامى يرجع إلى عدم اهتمام الكاتبة بما هو مصرى عموما فلم تحاول أن تدقق معرفتها على كل ما قابلته من جديد فى مصر حتى تصوره فى روايتها ، بل اكتفت بما سمعته من غيرها .

وهكذا نرى كيف تتوارث أفكار ومفاهيم عنا وتنتشر فى البلاد الغربية ونادرا ما يهتم أحد هناك بأن يصححها. ويحدث هذا حتى فى يومنا هذا. ألم نقرأ فى باب «علامات استفهام» الذى يكتبه الأستاذ رجب البنا ما يلى: «وزير الأوقاف قال إن على شبكة الانترنت أخطاء كثيرة ضد الإسلام.. من الذى وضعها؟.. وهل هو حسن النية؟ وماذا ستفعل الدول الإسلامية لمواجهة هذا العدوان على شبكة يتعامل معها ٢٠٠ مليون مثقف فى كل العالم؟.. (انظر مجلة أكتوبر – عدد ١١٠٠).

إن الأستاذ رجب البنا، يفترض سوء النية ولكننى أرى أن هـذه الأخطاء ترجع إلى عدم اهتمام مسئولى الانترنت بنـا عمومـا أو أنـهم ادخلوا فى الشبكة المعلومات التى كانت لديهم فلـم يجـدوا سـواها . وبما أننا عرفنا أن هناك أخطاء فهل سارع أحـد بإرسال المعلومـات الصحيحة للمسئولين فى شبكة الانترنت؟.

وعودة إلى رواية «شجرة الخطر» نجد أنها- كمـا قلنـا – مليئـة بالصور غير المشرفة لنا ولمصر كبلد وكطبيعة. ويجسد المصريون فيـها كل القيم السلبية أمـا الإنجلـيز فيمثلـون الحضـارة المتقدمـة والذكـاء والنبل والشجاعة والإنسانية.

إننا نجـد خـلال قراءتنـا للروايـة أن الكثـيرين مـن الشـخصيات الإنجليزية تحاول أن تتناسى وجودها فى مصر فتتذكر الأيـام التـى أمضوها فى اليونان قبل لجوئهم إلى بلدنا. فكل ما يخص ذكرياتـهم عن اليونان سواء كانت متعلقة بالبشر أو التقاليد أو الطعام أو الطبيعة اليونانية كل ذلك يعد لهم بمثابة الجنة، أما مصر فكأنما قد اجتمع كل ما يجب أن ينفر منه أى إنسان متحضـر . ومـا هـو سـبب هـذا التباين الواضح بـين مصـر واليونـان فـى روايـة «شـجرة الخطـر» ؟ السبب بسيط: وهـو أن الأوربيـين يعتـبرون اليونـان مـهد الحضـارة الأوربية، ولذلك يجب أن تمجد وتعظم .

....

ويذكرني ذلك بكتاب مهم ألفه إنجليزى وهو يعمل حاليا فى جامعة أمريكية كبرى اسمه مارتين بيرنال. أما كتابه فاسمه «أثينا السوداء» وصدرت أول طبعة له فى إنجلترا فى أواخر الثمانينيات .

إن صاحب هذا المؤلف العظيم كان بيننا فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٩٥ وألقى عدة محاضرات تكلم فيها عن كتابه وحكى كم هوجم فى البلاد الغربية بسبب محتوى كتابه هذا. ومحتواه – باختصار شديد إذ أنه يتكون من عدة أجزاء – هو أن أصل الحضارة الأوروبية أو الغربية لا يرجع إلى اليونان بل يرجع إلى القارة الإفريقية وبالتحديد إلى مصر وحضارتها الفرعونية. وحسب كلام بيرنال لم يأت اليونانيون القدماء بأى جديد فى حضارتهم إلا مما أخذوه من الحضارة المصرية الفرعونية وطوروه بعد ذلك.

وفكرة كتاب «أثينا السوداء» لا تعجب الغربيين بطبيعة الحال لأنه يرجع أصول حضارته إلينا وهذا لا يشرفهم بل يؤلمهم لأنه يقلب رأسا على عقب كل بنائهم الفكرى بخصوص أصول حضارتهم ورقيها وعظمتها فكتاب مارتين بيرنال هذا يقدم دلائل مستفيضة لإثبات آرائه.

«أثينا السوداء» لا يقل فى أهميته بالنسبة لنا عن كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد الذى ذكرناه فى بداية كلامنا هنا لأن مؤلفه بيرنال يقدم هو الآخر منظورا جديدا لأفكار غربية قديمة بلغة

يفهمها الغربيون، وفى هذه المرة يقرأ الغربيون أن أصل الحضارة العظيمة التى يتفاخرون بها يرجع إلى مصر وليس إلى اليونان.

ولهذا ليس من الغريب أن نسمع عن الهجوم والنقد الذى قوبل به هذا الكتاب عند صدوره وأن نعرف أنه لم ينتشر الانتشار الذى يليق بأهميته فى البلاد الغربية، والسبب يرجع إلى أن صراع الحضارات أصبح اليوم أمرا واقعا وهاما وحيًّا، ومثل هذا الكتاب يضعف موقف الحضارة الغربية .

وقد نتساءل هنا لماذا أقدم مارتين بيرنال على تأليف كتاب يضعف موقف الحضارة التى ينتمى إليها ؟

والإجابة هى: أنه عالم عثر على حقيقة لم يرد أن يغفلها بل أراد أن يعرف قراءه بها فأمضى سنوات طويلة فى البحث والعمل لإثبات نظريته. ثم إن المؤلف بالذات قد منحه اسما وشهرة عالمية، وفتح لنا الشرقيين بابا جديدا لكى نحدد موقفنا من حضارة الغرب مثلما فعل إدوارد سعيد بكتاب «الاستشراق» فى أواخر السبعينيات .

وبمناسبة كتاب «أثينا السوداء» أسعدنى أن أقرأ فى إحدى صحفنا اليومية أنه ظهرت للجزء الأول منه ترجمة باللغة العربية الآن - أى فى ١٩٩٧ - فى القاهرة وقام بهذه الترجمة خمسة من الأساتذة المصريين المعروفين بإجادتهم للترجمة وصدرت عن المجلس الأعلى للثقافة .

حتى أنت يا نيوبى !

كلنا نعلم أنه فى وقت من الأوقات لم يكن لدينا فى مصر إلا جامعة واحدة وهى جامعة القاهرة التى كان اسمها - كما نعلم جميعا - جامعة فؤاد الأول . وكان فيها فى ذلك الحين قسم إنجليزى واحد يدرسون فيه الأدب الإنجليزى واللغة الإنجليزية . ولم يقم على التدريس فى ذلك القسم فى بداية الأمر إلا مدرسون إنجليز وبمرور الزمن سمحوا للمصريين المتفوقين أن يعاونوهم فى التدريس . ثم تحول القسم بمرور الزمن إلى قسم يديره مصريون فقط ، وحدث ذلك بعد قيام الثورة والتحولات السياسية والاجتماعية التى حدثت فى الخمسينيات من هذا القرن .

المهم - وهو ما أنوى الكتابة عنه هنا - هو أن بعض هؤلاء الإنجليز الذين كانوا يقومون بالتدريس فى جامعة فؤاد الأول كانوا يشعرون بأن لديهم موهبة الكتابة الفنية فألفوا روايات . من ضمن هؤلاء أسماء مثل نيوبى وإنرايت وليدل وآخرين .

إننى فى الحقيقة لست مبهورة بمؤلفاتهم الفنية فكتاباتهم الروائية ضعيفة جدا من الناحية التقنية وحتى من ناحية مضمون رواياتهم فينقصها العمق فى القيم والأفكار التى تتناولها . ولكننى توقعت أن يكون هؤلاء فى نهاية الأمر على صلة مباشرة بالطالب

المصرى، ومـن هنـا قـد تختلـف رؤيتـهم لنـا ولحياتنـا لأن المعاملـة الشخصية لابد أن تولد علاقة إنسانية تجعل حكم كل مـن الطرفـين على الآخر حكما تلقائيا لا تتدخل فيه أفكار مسبقة ومدونة . ثم إن هؤلاء الكتاب أساسا مدرسون ومعلمون ، والمدرس بطبيعة عمله لابـد أن يكون فيه نوع من الإنسانية التى تتجنب السياسـة وأحكامـها ، ولابد أيضا أن مهنتهم جعلتهم يتغلبـون علـى أفكـار موروثـة تحـدد حكمهم علينا ومواقفهم منا مثل التى وجدناهـا عنـد داريـل وليفلـى ومانينج وآخرين ، ويرجع ذلك إلى أنهم تعاملوا مع الطالب المصـرى مباشرة .

وقد وقع اختيارى على أحد هؤلاء هو ب.هــ . نيوبـى وهـو مـن المدرسين الإنجليز الذين عملوا بجامعة فؤاد الأول ثـم ألفوا روايـات أشاروا فيها إلى حياتهم فى مصر أو حتى جعلوا أحداثها كلـها تقـع فى بلدنا . ويرجع اختيارى له لأننى اعتبرته أحسنهم فى فن القص إلا انه أقل جودة بكثير من الفنانين الذيـن عرضـت أعمـالهم هنـا . والعمل الذى أتناوله هنا بالتحديد اسمـه «رحلـة إلى سقارة» الـذى نشر فى عام ١٩٥٥ . وبين يدى طبعته الأولى ولا أظن أنه صدرت له طبعات بعد ذلك . كما أعرف أنه لم يترجم إلى العربية. أما صاحب الرواية نيوبى فهو عـين فـور نشـرها رئيس للقنـاة الثالثـة بالإذاعـة الإنجليزية .

من هو ب. هـ. نيوبى؟

عاش نيوبى فى مصر ما بين ١٩٤١ و١٩٤٧ وقام بتدريس اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة القاهرة وبالمركز الثقافى البريطانى خلال هذه المدة كلها.

إننى تحدثت عن نيوبى مع بعض المصريين الذين كانوا من طلبته فى الأربعينيات وعرفت منهم أنه كان طيب المعاملة وأنه لم تكن فيه صفة التعالى على المصريين التى عرف بها زملاؤه من المدرسين الإنجليز . وقالوا أيضا إنه كان ممن يصرحون بحبهم لمصر ولأهلها، وأنه جاء مرارا لزيارة مصر سياحيًا بعد مغادرته لها عام ١٩٤٧ . ثم أنه ألف أكثر من رواية تقع أحداثها فى مصر.

هذا ما قالوا لى عنه . وأحب أن أضيف هنا إننى لاحظت أن معظم من درس على يد الإنجليز فى مصر يحترمون الإنجليز وحضارتهم وفكرهم جدا ونادرًا ما يصرحون بالسلبيات الإنجليزية، وأنا أفسر هذا الموقف بأنه نوع من الشهامة المصرية المعروفة لدينا غير أن الإنجليز لا يقدرون لنا هذه الصفة بل يعتبرونها نوعا من الجبن أو الاعتراف بأنهم أقوى منا حضاريًا .

وأحب أن أضيف أيضا أننى رغم الانتقادات الكثيرة التى أسردها هنا عن مواقف الإنجليز السلبية منا كشعب وكحضارة وكدين فيجب أن أعترف أن من أكثر البلاد التى أحب زيارتها هى إنجلترا بصفة

خاصة . وأنني لو رجعت فى الزمن إلى الوراء لاخترت دراسة الأدب الإنجليزى مرة أخرى . وأحب أن أوضح أن كتابتى هنا تهدف إلى تفسير موقف الغرب السلبى منا وهو موقف مبنى على أفكار خاطئة توارثوها فى الغرب جيلا بعد جيل بدون أن يعيدوا النظر فيها ، وهو موقف شديد الخطورة إذ إنه أصبح يؤثر على قرارات الغرب السياسية كما أوضح ذلك الأستاذ رجب البنا فى كتابه المهم «الغرب والإسلام» (١٩٩٧) والذى أشرت إليه مرارا لأهميته .

ما هو محتوى رواية «رحلة إلى سقارة» ؟

إن معظم أحداث الرواية تقع فى القاهرة وتدور حول محورين . **أولا** ، هى تسرد قصة زواج إنجليزى اسمه «بيرى» - وهو الشخصية الرئيسية فى الرواية - ويوشك هذا الزواج على الفشل ، والطلاق على وشك أن يتم بين الطرفين بسبب تباعد «بيرى» هذا عن زوجته ولكنهما يواجهان معا فى مصر بعض الأحداث التى تعيد المياه إلى مجاريها. **وثانيا** ، تتناول الرواية محورا آخر وهو علاقة الإنجليز وبيرى بالتحديد - وهو يعمل مدرسا فى الجامعة المصرية - بالمصريين .

ويصور لنا نيوبى «بيرى» هذا على أنه مدرس ذو نزعة إنسانية قوية يحب طلبته المصريين ، ويريد أن يساعدهم وذلك عن طريق اضطلاعه بمشروع لبناء سكن ملائم للطلبة المصريين المغتربين .

ولا يجد من يعاونه على تحقيق هذا المشروع فالمصريون أنفسهم - أى الإدارة بالجامعة ومن يعرفهم «بيرى» من أفراد العائلة المالكة - لا يبالون ولا يهتمون بظروف الطلبة المعيشية كما يبالى هو الإنجليزى «الشهم ، الذكى ، الإنسان» . وهو يتعاطف مع الطلبة المصريين الذين يعيشون فى ظروف سيئة وهم فى حاجة إلى من يفكر فى تحسين حالهم لأن المصرى يصور فى الرواية على أنه طفل فى جوهره أيا كان عمره وهو لذلك يرضى بأى شىء وليس لديه الذكاء الكافى الذى يساعده على التفكير والتخطيط وتحديد ما يريده أو ما قد يحتاج إليه . وتنتهى هذه العلاقة - أى العلاقة بين المصريين والإنجليز - بالفشل إذ تتدخل بين «بيرى» والمصريين أمور سياسية ومصالح وطنية تجعله يغادر مصر فى آخر الرواية وهو آسف لهذا أشد الأسف.

وما يهمنا هنا هو تصوير مصر والمصريين ثم الإسلام فى الرواية . ويجب ألا ننسى أنه يقال عن كاتب «رحلة إلى سقارة» إنه ممن أحبونا وفهمونا . ونعرض فيما يلى بعض أفكاره كما وردت فى الرواية :

- تصور الرواية مظاهرات الطلبة المصريين فى الأربعينيات من هذا القرن وتصورهم يقتحمون المدرجات لكى يوقفوا المحاضرات ويشجعون طلبة آخرين أن ينضموا إليهم وهم يطالبون بوحدة الوادى والانسحاب الفورى للقوات البريطانية من مصر . ولا يأخذ

«بيرى» - الأستاذ الإنجليزى بالجامعة - هذه المظاهرات مأخذ الجد فيفسرها على أنها مشاغبة أطفال لا يريدون حضور محاضراتهم . ثم يشير إليهم بسخرية جارحة إذ يراهم مرتدين «الطربوش» الأحمر ويذكره ذلك بأنه قرأ فى مرة من المرات فى رواية من روايات الخيال العلمى أن سكان المريخ عندما يغضبون تحمر رءوسهم .

وتكثر فى الرواية مثل هذه التشبيهات التى قد تظهر فكاهية للقارئ الإنجليزى ولكنها ساخرة وجارحة ومهينة إلى حد بعيد للقارئ المصرى، فكيف نضحك من أنفسنا ؟

- عندما حدق «بيرى» فى وجوه المتظاهرين رأى فيهم «جيل مصر الصاعد» وهو يتكون من «طرابيش» ، ووجوه بيضاء ، ووجوه سمراء ، ووجوه سودانية بها خطوط محفورة، وشوارب، وأنوف زنجية وشفاه تنتمى إلى جنس البحر المتوسط وهو يذكر أن مشهدهم كان يثير فيه الدهشة وربما الخوف.

- ثم يسمع «بيرى» أن هؤلاء الطلبة سيستعملون السلاح لمحاربة الإنجليز وطردهم من مصر . وبما أنه لا يثق فى ذكاء الطلاب المصريين ولا فى مهاراتهم فهو على ثقة تامة فى قرارة نفسه أن هؤلاء الطلبة لا يعرفون استعمال الأسلحة أو أنهم قد ينسون وضع

الرصاص بداخلها فهو لا يراهم أكفاء للقيام بأى شيء . ويشير إليهم مرارا بأنهم «شباب يتسم بالغباء والبلاهة».

– ثم يسرع «بيرى» بين جموع الطلبة لكى يغادر المكان ومن الواضح أنه لا يخشى قوتهم بل يخشى أن تصيبه منه «عدوى» الأمراض المصرية . ومن المعروف أن الإنجليز كانوا يتحاشون المصريين عموما لأن المصريين فى نظرهم مليئون بالأمراض المعدية المستعصية المزمنة . ويتذكر حينذاك نظافة الإنجليز ويشتاق إليها.

– ثم يشير «بيرى» مرارا إلى روائح المصريين الكريهة وهى عبارة عن مزيج من العرق والثوم وأشياء أخرى منفرة . ويهيأ للقارئ أن الكاتب يصف رائحة بهائم وليس رائحة طلبة مصريين محترمين يطالبون بتحرير بلدهم.

ونيوبى فى ذلك مثل باقى الروائيين الإنجليز الذين أشرنا إليهم هنا ، فالنزعة العنصرية موجودة بوضوح لدى هذا المربى والمعلم الإنجليزى الذى قال إنه أحب مصر والمصريين .

وبخصوص نظافة الإنجليز أذكر أن الطلبة المصريين يثيرون الدهشة عند الأسر الإنجليزية التى يقيمون لديها خلال وجودهم هناك عندما يصرون على الاستحمام مرة كل يوم . كانت الأسرة الإنجليزية تندهش لذلك ويقولون لهم إنه جرت العادة لديهم بأن يستحم المرء مرة واحدة على الأكثر فى الأسبوع .

وأذكر كذلك إن إحدى صديقاتى المصريات فى إنجلترا كانت تحب أن تستعمل العطور ، وقالت لها إحدى صديقاتها الإنجليزيات : «لماذا تستعملين العطور فهى باهظة التكلفة ؟ ألم يكن من الأوفر أن تستحمى ؟ » وكانت الإنجليزية قد فهمت أن العطور التى تستعملها صديقتى تغنيها عن الاستحمام ولم تتصور أن صديقتى هذه تستحم ثم تستخدم العطر.

إننى لا أحاول بأمثلتى هذه أن أقارن بين نظافة الإنجليز ونظافتنا ، بل أريد أن أقول إن كل قوم لهم عاداتهم ويجب أن تحترم وألا تنتقد.

هل فى رواية «رحلة إلى سقارة» طلاب أحبهم « بيرى» ؟

نعم هناك طالبان هادئان يشكران «بيرى» على مجهوداته من أجلهم مثل مشروعه ببناء سكن الطلبة ويريان أنه إنسان ذكى وشجاع . وتصور الرواية هذين الطالبين خاضعين لرأيه مبهورين به وبما يقوله ويفعله فهما يساعدانه ويؤيدانه ،ولكنهما لا يبادران بأى شىء جديد أو فكرة نيرة طوال الرواية ، واسمهما «منصور» و«بوجوس» (هكذا يسمى نيوبى الطالب المصرى ، فالكتاب الإنجليز عموما يبتكرون لنا الأسماء) .

ما هو نمط الطالب المصرى الذى يرفضه «بيرى» ؟

هذا الطالب يتجسد فى الرواية فى شخصية اسمها «معاوية» وهو طالب بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

وهو قليل الذكاء لا يفهم جوهر ومعانى النصوص الإنجليزية ، وهو يتصرف بطريقة تبدو وكأنها غير آدمية ، وهو مسلم ومتطرف فى إسلامه ويبدو أن دينه أثر على سلوكه وأفكاره وكلامه . وهو همجى قاس عدوانى وغير متزن ، ثم إنه يتعاطى الحشيش ويصبح من الصعب التنبؤ بما قد يفعله ، وهو يرتدى الزى الأوربى ولكن غالبا ما ينقصه شيء مثل الجوارب داخل الحذاء .

ومعاوية هذا عضو فى جماعة الإخوان المسلمين . ومن خلال هذه الجماعة وتعاملاتها تظهر صورة الإسلام فى الرواية . ويصف «بيرى» الإخوان بأنهم عصابة «مافيا» لا تعرف النظام ولا القانون ولا القيم الأخلاقية المقبولة ، ثم أنهم لا يعرفون الرحمة فأساليب تعاملهم هو العنف والقتل والتعذيب لكل من يخالف فكرهم وأغراضهم . والطالب معاوية هذا لا تصله بإخوانه المصريين علاقات صداقة إنسانية ، إذ علاقاته كلها تقوم على مصالح ، ولا يساعده ويشفق عليه فى نهاية الأمر إلا الإنجليزى «بيرى» .

ومن خلال شخصية معاوية يصور لنا نيوبى الإسلام على أنه دين قسوة وعدوانية وجريمة ، وأنه عن طريق جماعة الإخوان المسلمين يسيطر على مصر وناسها ويقضى فيها على قوة القانون وعلى القيم الأخلاقية والمعروفة فى البلاد المتحضرة التى لا تنتمى إليها مصر بطبيعة الحال .

هل هناك أشياء أخرى في الرواية تسيء إلى مصر؟

نعم هناك الكثير وعلى سبيل المثال هناك مشهد يتكرر فى الرواية وهو يصور «بيرى» إذ نراه دائما خائفا من طائر الحدأة ، فإن كان واقفا في الهواء الطلق وفى يده شيء من المأكولات لابد وأن يهاجمه هذا الطائر ويخطف ما يأكله (إننى شخصيا لم أر ولم أسمع أبدا عن هذه الخصوصية فى طائر الحدأة). وبما أن هذا المشهد يتكرر فى الرواية فإن هذا التكرار يوحى بمعنى استعارى إذ إنه يبدو وكأن الإنجليزى لا يجد الأمان فى مصر ، فمن الممكن أن تخطف منه فى أى وقت وبدون مبرر ممتلكاته أو ربما كرامته أو حياته نفسها ، فالشعور بعدم الأمان هو ما يشعر به جميع الإنجليز فى مصر ، وهم جميعهم لذلك يحبون وقت الظهيرة إذ يستريحون من حرارة الجو ثم ينسون بالنوم أنهم بيننا فى مصر.

ويدل كل ذلك على أنهم لا يحبون الحياة بيننا وحتى لو أظهروا تعاطفا معنا فيكون دائما تعاطف الثرى القوى المستعمِر للفقير الضعيف المستعمَر الذى لا أمل فى ارتفاع مستواه الحضارى.

– وهناك مشهد آخر فى الرواية يقول فيه أحد الإنجليز لزمليه : «لماذا يدرسون الأدب واللغة الإنجليزية للمصريين إذ أن المصريين لا يقدرون ذلك؟

فيجيبب الآخر ويقول : «إن تعليم اللغة والأدب الإنجليزى فى مصر مهم جدا ، فالمصريون لو لم يتعلموا الإنجليزية لتعلموا الروسية» .

ويوضح مثل ذلك الحوار أن مسألة استعمار مصر وتعليم المصريين مسألة سياسية بحتة ، ليس للناحية الإنسانية مكان فيها حتى لو أظهر «بيرى» فى الرواية - وهو السائل فى الحوار- عكس ذلك.

- أما بخصوص المصريين وحياتهم فيصورهم نيوبى أنهم يحاولون تقليد الغربيين فى الملبس وفى بيوتهم ولكنهم فى الغالب لا يفلحون فى فهم الأفكار الغربية المتقدمة المتحضرة.

أما المنازل فإن المصريين لا يعرفون كيف يفرشونها فبيرى يتصور أن المصريين كأنهم يقيمون الخيام داخل «فيلاتهم» وشققهم. هكذا يصورنا نيوبى وكأننا بدو لا ننجح حتى فى تقليد الغربيين.

- ثم إن مغادرة الإنجليزى «بيرى» لمصر فى نهاية الرواية - وهو الرجل الذى حاول مساعدة الطلاب المصريين - يوحى بأن لا أمل فى إصلاح مصر ولا المصريين فمهما بذل من أجلهم من جهد فلا فائدة منه ؛ إذ أنه جهد غير مثمر.

أظن أن ما عرضته من رواية «رحلة إلى سقارة» حتى الآن يكفى لكى ندرك أن حتى نيوبى.. وهو الأستاذ الجامعى الإنجليزى الذى يقال عنه إنه أحب مصر والمصريين. هو أيضا متأثر بالأفكار الراسخة لدى باقى الغربيين : هكذا يروننا وهكذا يفرضون علينا أن نكون ولا يلتفتون إلى الواقع المصرى حتى يتبينوا إن كان يطابق تصويراتهم لنا أم لا.

الروايات إذن – كما قلت فى بداية كلامى – أعمال فنية وهى فى جوهرها سياسية بحتة. وفى حالة الروايات التى تناولناها بالعرض والدراسة هنا فهى سياسة غربية متوراثة تفرض علينا دائما أن نظهر فى صورة الضعفاء والأقل ذكاء ونضجا ومعرفة منهم. ويتصل الموضوع بأكمله بما سميناه بالصراع بين الحضارات أو الثقافات.

....

ويحضرنى الآن زيارة أحد الروائيين الأمريكيين إلى مصر منذ ما يقرب من سنة. وألقى هذا الروائى محاضرة فى جامعة القاهرة. وكما جرت العادة فتح باب المناقشة والتحاور معه ، فسأله أحد الحاضرين المصريين عن رأيه فى إسناد وزارة الخارجية الأمريكية لمادلين أولبرايت إذ كانت عُيِّنت منذ أيام قليلة حينذاك بعد تدخلها «الشرس» ضد انتخاب الدكتور بطرس غالى لمنصب أمين عام الأمم المتحدة . فحاول الروائى الأمريكى أن يتجنب الرد المباشر وقال: ببساطة إنه يرحب بفكرة إسناد منصب مهم لامرأة– فالمرأة عموما – جديرة أيضا بالمناصب المهمة. وتجنب الرد الحقيقى على السؤال الذى كان المقصود منه رأيه فى أولبرايت كشخصية لها موقف واضح فى السياسية الخارجية الأمريكية .

ثم حضرت لنفس هذا الروائى الأمريكى ندوة أقامتها له مكتبة مبارك بالجيزة. وسأله أحد الحاضرين المصريين: «ما هى رؤيتك

السياسية؟» . فأجاب عليه متجنبا الرد المباشر الواضح مرة أخرى وقال: «إنني روائي لا أفكر في السياسة أبدا، فالسياسة بعيدة كل البعد عن تفكيرى. إننى لا أهتم إلا بالإنسان وبالمواقف الإنسانية !» هكذا كان رد الروائى الأمريكى المعروف ، وكان ردًا ساذجًا يدل على استخفافه بالحاضرين ، وكانوا كلهم من المصريين المثقفين. ومن المعروف اليوم أن السياسة أصبحت تجرى فى عروق أى مصرى ، ويرجع ذلك إلى ظروف تاريخنا وحياتنا. وكان من المفروض أن يفهم الكاتب الأمريكى هذا وألا يتجنب الردود الواضحة الصريحة حتى يصبح الكلام بينه وبين الجمهور حوارًا مثمرًا.

وهو فى ذلك فاته أن يدرك أن كل عمل فنى يتضمن رؤية سياسية مهما كانت نوعية هذا العمل ، وهذه فكرة عرفناها وفهمناها فى مصر منذ زمن طويل. ونحن ندرك أيضا أن هذه الرؤية تتداخل فى العمل الفنى سواء بإرادة الفنان أو بدون وعيه.

إنه لم يقدرنا بما نستحق رغم أنه كان إنسانا لطيفًا بشوشًا ، وكانت زوجته جالسة بين الجمهور لتشجيعه. ورغم أن المشهد كله خلال الندوة فى مكتبة مبارك كان يبدو عاديًا وهادئًا ورغم أن الحوار استمر بين الروائى الأمريكى والحضور المصرى ساعة أو أكثر فإن صراع الحضارات كان يلعب دوره فى الخفاء وبدون أن يشار إليه.

وانتهت الندوة وقدم حفل شاى بسيط لطيف فى قاعة من قاعات المكتبة ، وغادرنا المكان مبتسمين ومعظمنا على يقين بأن هذا الروائى

لم يفصح عن كل ما في صدره من آراء. ترى لماذا لم يتوسع في ردوده ؟

وبمناسبة هذا الروائي الأمريكي فإن في شهر ديسمبر من كل سنة تكثر جميع دور النشر الغربية من الإعلان عن إصداراتها الجديدة ويرجع ذلك إلى أن شهر ديسمبر هناك هو شهر تبادل الهدايا في بلاد الغرب بمناسبة عيد الميلاد المجيد. وربما أنهم يقرؤون الكثير فمن أحب هداياهم الكتب. ولاحظت أن اسم الروائي الأمريكي الذي زارنا في مصر منتشر في هذه الإعلانات . ومعنى أنهم يحاولون نشر اسمه وأعماله هو أن هذه الأعمال تعبر عن رؤية غربية يؤيدونها. ومعنى أنه له رؤية يساوي أن له موقفًا سياسيًا واضحًا.

ترى لماذا أنكر أنه يفهم في السياسة ولم يتوسع في ردوده عندما كان بيننا؟ ولماذا تمسك برأي أنه لا يكتب إلا من أجل الفن ومن منطلق إنساني بحت؟

لو كان تكلم لأدت ندوته إلى حوار حقيقي مثمر. ربما خشي رد فعلنا ، وقد تكون ترسخت لديه هو الآخر فكرة أننا عدوانيون وأننا لا نحتمل من لا يجارينا في أفكارنا؟ ربما ، فأنا لا أدري؟

إن كل ما تكلمت عنه هنا حول إبراز تصوير الأدباء الغربيين لنا في أعمالهم في صور سلبية للغاية نظهر فيها نحن المصريين وكأننا بشر من الدرجة الثانية لا أمل في إصلاحنا. وقد يقول لي أحد القراء المصريين إن الكثيرين من كتابنا في مصر وفي العالم الغربي يبرزون

فى أعمالهم أيضا صورا ومشاهد للقصور التى لدينا فى مجتمعاتنا. وردى على ذلك هو إن الكاتب المصرى الوطنى ـ أو العربى الوطنى ـ عندما يشير إلى سلبيات فى مصر أو فى أى بلد عربى آخر فإنه يستهدف منها الإصلاح ، وهو لذلك غالبا ما يقدم حلولا للداء أو يوحى بطريقة استعارية أن هناك أملا فى أن يصلح الحال فى المستقبل ثم إن الكاتب المصرى الوطنى لا يظهر المصريين على أنهم أقل قيمة على المستوى البشرى أو الخلقى أو الحضارى من غيره من الشعوب ، فالمصرى يكتب بهدف أن يرفع من مستوانا ، أما الكاتب الغربى فيصورنا كما لو لم يكن هناك أمل فى إصلاح حالنا وكأن تكويننا «البيولوجى» ناقص وأننا لذلك سنبقى دائما أقل منهم فى كل شيء.

إننى تناولت حتى الآن صورة مصر وصورة الإسلام فى بعض الأعمال الروائية الإنجليزية ، ويرجع ذلك إلى تخصصى فى الأدب الإنجليزى. ولكن نفس هذه الصورة عنا موجودة فى سائر الآداب الأوربية. فأذكر أننى قرأت – على سبيل المثال – خلال الصيف الماضى رواية الكاتب الفرنسى المعروف إميل زولا «تيريز راكين» (١٨٨٦) وهى أول رواية له اتبع فيها زولا المذهب الطبيعى ، ووصف فيها تصرفات عدد من الأنفار تصرفوا حسب غرائزهم الطبيعية مجردين تماما من أى قيم أخلاقية معترف بها. والرواية تصعب قراءتها بسبب الوصف الدقيق لانحدار هذه الشخصيات فى

تصرفاتها وسلوكها مما يجعلهم يبدون وكأنهم حيوانات. وسبب المشاكل التى تتطور فى رواية زولا وأحداثها لا تعنينا هنا هى الشخصية الرئيسية فيها وهى «تيريز راكين» التى سميت الرواية باسمها. ويقول زولال – الكاتب الفرنسي – عن هذه الشخصية «إن أباها فرنسي ، أما أمها فكانت عربية جزائرية ويجرى فى عروقها دفء المشاعر القوية العربية التى غالبا ما تقودها إلى الشر».

وتتسبب «تيريز راكين» هذه فى انحرافات دنيئة وجرائم أخلاقية بشعة والسبب – حسب كلام زولا – هو «الشر العربى» الكامن فيها.

إن كل ما أريد أن أوضحه فى كلامى أن الغربيين يحكمون علينا فى أعمالهم الفنية ويتعاملون معنا منذ قديم الزمن حتى يومنا هذا حسب أفكار موروثة لم يحاولوا أن يراجعوها ويصححوها أبدا لأن رأيهم دائما هو الصحيح ، ولا يضعون فى الاعتبار أبدا أننا نحن بثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا وديننا المختلف عنهم قد نقدم صورة أخرى متكاملة وجديرة بالاحترام أيضا. وهم لا يضعون فى الاعتبار أيضا أن تعدد الثقافات الذى فى عالمنا اليوم يجب أن يعطى لكل ثقافة وحضارة حقها فى البقاء والاحترام وأن ينشأ حوار مثمر بين الأطراف المختلفة. كل هذا لا يحدث أبدا للأسف الشديد ، فالنزعة العنصرية موجودة فى السياسة والاقتصاد والفنون ووسائل الإعلام المختلفة.

وأذكر بالمناسبة حلقات مسلسلة عرضت على شاشة «التليفزيون» المصرى منذ بضع سنوات اسمها «لاف بوت». وترجمتها «سفينة الحب» . وتذكرون معى أنها كانت من النوع الترفيهى «الكوميدى». وصورت إحدى حلقات هذا المسلسل فى مصر ، وظهرت فيها بالفعل بعض الشخصيات المصرية التى تمثلنا نحن. وأذكر أن المصريين الذى ظهورا فى هذه الحلقة بالذات كانوا كلهم مستخدمين ، منهم سفرجية ومنهم حمالون ومنهم شخصيات موجودة لإثارة الضحك ، ولم يظهر مصرى واحد جدير بالاحترام.

والسؤال هنا هو: كيف صرحت لهم السلطات المصرية بأن يصورونا على هذا الشكل داخل مصر؟ ولماذا عرض علينا التليفزيون المصرى هذه الحلقة بدون أن يطلب من المسئولين عن المسلسل أن يعتذروا لنا؟ إن سكوتنا وعدم احتجاجنا يجعلهم – هم الغربيين – يعتقدون أنهم على صواب فى تصويرهم لنا. ثم سكوتنا يجعل بعضنا يصدق ما يقولونه عنا. وبهذا الأسلوب تنتشر تلك الصورة التى قدموها لنا وهى صورة سيئة وغير مطابقة للواقع سواء فى خارج بلادنا أو حتى داخلها.

الشرقي عندما ينحاز للرؤية الغربية

هذه الصورة السلبية أساءت لنا ولدين الإسلام في آن واحد. إذ أنه من الصعب الفصل بين شعب وعقيدته وهذا ما رأيناه فيما عرضناه من أمثلة هنا إذ انتشرت هذه الفكرة غير المرضية ليس فقط في الأعمال الأدبية بل عبر وسائل الإعلام أيضا،فلست أتصور أن أحدًا منا - على سبيل المثال - رأى في أى مسلسل تلفزيوني غربي أو فيلم عرض على الشاشة الكبيرة الشخصية المصرية - أو العربية عامة- في صورة محترمة ، فهي دائما تظهر في أدوار ثانوية بل هامشية لا تكاد تذكر. وتظهر حينذاك في صورة المجرم أو المختلس أو الغدار أو صاحب المؤامرات أو الإرهابي وكلها أدوار شخصيات غير جديرة بالاحترام.

هل رأينا مرة واحدة مصريًا أو عربيًا أو مسلمًا يظهر في شخصية مؤلف عظيم أو طبيب ماهر أو مهندس خلاق أو حتى رب أسرة محترم؟ لا أظن أن هذا حدث أبدًا لأنهم هناك يصوروننا حسب أفكار مسبقة أو ربما يقصدون تصويرنا على هذا الشكل الدنيء فذلك يخدم مصلحتهم فيما سميناه بالصراع بين الحضارات أو الثقافات وما وراء ذلك كله في نهاية الأمر مصالح مادية بحتة.

أليس هناك من استخدمه الغرب بغرض الإساءة إلينا ؟

نعم، وأشهر مثال لذلك هو سلمان رشدى وروايته (انظر مقال د. حسين مؤنس عن هذه الرواية في مجلة أكتوبر عدد ٦٤٨ في

٢٦مارس ١٩٨٩، وكتاب «الغرب والإسلام» ص ١٩٥- ٢٠٥ حيث عرضت الرواية بالتفصيل) .

ماذا حدث بعد نشر رواية رشدى المذكورة فى الثمانينيات من هذا القرن ؟

حدث أن الخومينى بإيران أصدر إعلانا رسميا طالب فيه بإعدام مؤلف الرواية لأنها تسىء للدين الإسلامى وذلك مقابل مليون دولار. ثم رأينا جميع وسائل الإعلام الغربية تصور الإعلان الإيرانى على أنه حكم أصدره المسلمون وهم- حسب كلامهم- معرفون بالقسوة والجريمة والرأى المحدود الأفق ولا يعرفون حرية الفكر ولا يحترمون حقوق الإنسان.

وبعد ذلك صور الإعلام الغربى المؤلف الهندى الأصل وهو يختبئ فى مكان ما فى إنجلترا خوفا على حياته وكأنه ضحية غلبان . وفى نفس الوقت نشرت دار «بينجوين» المعروفة أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسخة من الرواية فى طبعة شعبية. ثم ساءت سمعتنا إذ ارتبط اسمنا بالعنف والرجعية ومعهما ساءت صورة الإسلام لأن الغربيين قرءوا عنه فى هذه الرواية التى تقدم ديننا فى صورة مشوهه لا تطابق الواقع الذى نعرفه.

وهكذا تنتشر عنا صور وأفكار خاطئة سواء بدون قصد - أى عندما يعتمد الكتاب الغربيون والمسئولون عن وسائل الإعلام هناك

على أفكار مسبقة وموروثة – أو عن قصد – كما حدث فى واقعة الروائى الهندى. ثم هناك وقائع أخرى لا حصر لها. فما هو تفسير الأعمال الإجرامية التى تقوم بها بعض العناصر الإرهابية لدينا؟ نتيجة ذلك أنهم فى الغرب اليوم يعتبرون كلا من مصر والجزائر أكثر البلاد التى بها مذابح جماعية ويرجعون السبب إلى ما يسمونه «بعنف مبادئ الدين الإسلامى» .

ثم ماذا نقول عن صورة نشرت مؤخرا فى مجلة غربية يظهر فيها أطفال فلسطينيون فى أيديهم سكاكين ويشار إليهم على أنهم يمثلون تطور «الانتفاضة» الفلسطينية؟ كلها أشياء تسيء إلينا كثيرا بدون شك.

ولننظر للموضوع من ناحية أخرى. هل نتذكر زيارة روجيه جارودى إلى مصر مما يقرب عن سنتين؟ إن جارودى-كما نذكر- كاتب وفيلسوف فرنسى ألف كثيرا فى موضوع اليهود وما يقدمون به إعلاميا حتى يظهروا فى صورة أبطال عالمنا. لقد أظهر جارودى أن كثيرا مما يستندون إليه أكاذيب مفبركة ومن أهم كتبه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل» الذى نُشر فى التسعينيات .

ومما لا شك فيه أن الكثيرين فى مصر يشاركوننى الرأى فى أن دولة إسرائيل هى ممثلة الغرب بيننا . ولذلك هى دولة مهمة وثرية وقوية إذ أنها ترمز لكل ما هو غربى. ولذلك يجب أن تظهر دائما قوية وجديرة بالاحترام عبر الإعلام الدولى. وبما أن جارودى خدش

صورة اليهود وإسرائيل فكان يجب أن يعاقب حتى يتراجع عما كتبه وحتى لا تنتشر أفكاره . ولذلك لم تنشر مؤلفاته ، واضطهد ، وحاليا يحاكم بتهمة معاداة السامية والتشكيك فى جرائم النازى ضد اليهود فى الحرب العالمية الثانية .

ماذا نفهم من كل هذا ؟ نفهم أن الصورة التى يظهر بها كل شعب تخضع لضغوط سياسية واقتصادية غير متصلة بالحقيقة البحتة فى أغلب الأحيان.

والشيء المؤسف فى موضوع صراع الحضارات أن بعضنا تأثر بأفكار الغربيين عنا. فنرى على سبيل المثال أشياء مثل الآتية:

– بعضنا – فى مصر بالتحديد– يدخل فى كلامه باللغة العربية كلمات إنجليزية أو فرنسية معتقدا أنه بذلك يضفى لنفسه قيمة أكبر.

– بعضنا يفضل قضاء العطلات فى بلاد أوربية حتى يثبت أن انتماءه للغرب وما يقدمه أقرب إلى تكوينه الشخصى. ألا نسمع عن مصريين يقضون إجازاتهم فى أوربا أو جزر الكاريبى أو حتى فى هاواى ؟

– البعض يتباهى بأن كل تعليمه كان تعليمًا أجنبيًا، وكأنه يعترف بذلك أن ثقافتنا وتراثنا ليس فيها ما تقدمه لإثراء الشخصية وتكوينها .

– بعض السيدات يتباهين بأن كل ملابسهن مشتراة من بلاد غربية ولا يدركن أن الكثير مما يحصلن عليه فى الخارج من ملابس

مصنوعة أصلا فى مصر أو فى بلاد مجاورة لنا وأن كل ما تفعله شركات الملابس المعروفة هناك أنها تستورد بضاعتنا وتضع عليها بطاقات تابعة لها .

– نجد بيننا من يحب أن يتفاخر بأصوله الأجنبية مثل أصله التركى أو أصله الإيرانى وكأنه يتحاشى تمسكه بأصوله المصرية.

– الكثير من محلاتنا التجارية تتخذ لها أسماء أجنبية لأن أصحابها يعلمون أن ذلك غالبا ما يشد الزبون المصرى .

– عندما يشترى بعضنا شيئا مصنوعا فى مصر ويجده متقنا فى صناعته يصفه بأنه جميل وممتاز «وكأنه صنع بالخارج».

– إنى أعرف بعض الناس المصريين لا يكفون عن الشكوى من كل ما هو مصرى وكأنهم يرددون بذلك كلام الغربيين عنا ولا يدركون– على ما أظن– أنهم بهذه الطريقة يحبطون الحالة المعنوية لدى كل من حولهم . وإن قلت لهم : لماذا لا تغادرون مصر إن كان الحال لا يعجبكم إلى هذه الدرجة فإنهم لا يجدون إجابة مقنعة. حبذا لو أن هؤلاء راجعوا مواقفهم حتى يعرفوا ويعرفوننا إلى أى ناحية ينتمون .

كل هذه الأمثلة المنتشرة بيننا لا نجدها فى بلاد الغرب . فهناك يتباهون بلغتهم الأم وبتراثهم وبصناعاتهم ويمجدون كل ما ينتمى إليهم.

هل نذكر محاولات الرئيس الفرنسي السابق «ميتران» عندما منع جميع وسائل الإعلام الفرنسية من استعمال أى كلمات أجنبية- الإنجليزية بالتحديد؟ كان رجلاً فرنسيًا وطنيًا يخشى على كرامة فرنسا- وهو بلد غربي- من الغزو الثقافي الأمريكي . فقام ميتران برسالته وحققها بالفعل وهو الحفاظ على حضارة بلده فرنسا وثقافتها ولم يلجأ إلى أى نوع من التطرف حتى يحقق هدفه كما يفعل البعض عندنا عندما يلجئون للأصولية الدينية أو العلمانية فيدمرون ويشتتون الوحدة الوطنية بدلا من الحفاظ عليها . والسبب فى اهتمام الغربيين بالحفاظ على حضاراتهم وثقافتهم لا يرجع إلى أنهم أحسن أو أذكى منا ولكن لأنهم تنبئوا منذ زمن طويل إلى أهمية الانتماء الحقيقى إلى وطن وتراث وحضارة، وعملوا من أجل ذلك الهدف وكأنها سياسة اتبعوها: تعلموا كل ذلك فى مدارسهم وفى جامعاتهم وفى بيوتهم وبناء على ذلك أصبح موقفهم الحضارى اليوم أقوى من موقفنا ثم بدءوا التأثير علينا. أليس هذا هو المقصود من وراء «العولمة» أو «الكوكبية» التى أصبحت اليوم على لسان كل واحد منا؟

وعودة إلى مجال الأدب نتساءل: **هل كل من اعتنق الرؤية الغربية فى مؤلفاته غربى الأصل والنشأة ؟**

إن تأثير الفكر الغربى أصبح قويًا لدرجة أن هناك من بيننا من اقتنع به وتبناه وهو- على ما أظن- مدرك لذلك. هذا ليس بغريب.

إننى وجدت ذلك فى أعمال أهداف سويف وذلك في وارايتها «فى عين الشمس» (١٩٩٢) بالتحديد . وأهداف سويف مصرية تقيم وتعمل فى إنجلترا منذ زمن طويل. أما رواية فى «عين الشمس» فهو مؤلف جميل جدا كتبته المؤلفة باللغة الإنجليزية و- حسب كلامها- لا تؤلف باللغة العربية أبدا .

والرواية رواية مصرية ولكن المؤلفة تقدم أحداثها من هناك أى من منظور غربى بحت وهى بذلك تخاطب القارئ الغربى. ترجم من هذه الرواية إلى العربية الفصل الأخير فقط ونشر فى جريدة «أخبار الأدب» (انظر عدد ١٠- ١٥ لعام ١٩٩٣) .

ما هو محتوى «فى عين الشمس» ؟

تروى الرواية – باختصار شديد- قصة حياة فتاة مصرية ولدت وتربت فى مصر من أبوين مصريين ، ثم سافرت لتكملة دراساتها العليا بالخارج –فى إنجلترا بالتحديد . ونقرأ فى هذه الرواية أحداث حياة هذه الفتاة المصرية المسلمة ثم نتتبع أيضا نموها الشخصى حتى تصبح امرأة ناضجة تعرف ما تريده من الحياة .

تقع معظم أحداث الرواية – بطبيعة الحال – ما بين مصر وإنجلترا ، أما صفحاتها فتقرب من الألف صفحة من القطع الكبير ، وبناؤها الفنى مضبوط لأبعد الحدود .

ومعظم ما يوصف عن مصر فيها هى العلاقات الإنسانية التى تجمع ما بين بطلة الرواية وأفراد عائلتها وصديقاتها فى مصر .

وأسلوب الرواية جذاب ويلفت النظر إذ أنها كتبت بالإنجليزية ولكن تركيبات الجمل فيها تكاد تكون تركيبات عربية من الناحية اللغوية.

ومن يقرأ الرواية لابد أن يدرك أن مؤلفها لا يمكن أن يكون إلا مصريا وذلك من كثرة الوصف الدقيق لكل تفاصيل الحياة المصرية- وبالذات حياة المرأة المصرية- فالرواية عموما لا تبرز السلبيات العامة التي وجدناها لدى الكتاب الإنجليز الذين تناولنا أعمالهم هنا بل إنها تصف الحياة المصرية كما تراها هذه الفتاة واسمها-بالمناسبة- «آسيا» وهى بطلة الرواية. ولكن الرواية فى جملتها تقدم الأحداث من منظور غربى إذ يجد القارئ الغربى فيها ما يشبع لذته فى القراءة وما يرضى كبرياءه الحضارى ومن هنا نجحت الرواية هناك. وتتبين الرؤية الغربية فيها فيما يلى :

- تتزوج الفتاة المصرية من شاب مصرى كانت على علاقة به منذ سنوات طويلة. وبعد الزواج منه تكتشف أنه لا يستطيع إتمام الزواج لأنه عاجز جنسيًا وبذلك لا يلبى ما كانت تتمناه من حياتها معه.

- تتعرف على شاب أمريكى وتدخل فى علاقة حميمة معه ويحقق لها ما لم تجده فى زوجها المصرى. تتم العلاقة وهى مازالت فى عصمة زوجها وفى بيته. لا تشعر هى بالذنب إلا قليلا بل تشعر أنها نجحت مع الأمريكى فيما فشلت فيه مع زوجها المصرى وتتفاخر بذلك.

– لا تذكر اسم الله ولا مرة واحدة فى حياتها أثناء أحداث الرواية رغم أن هذه الكلمة كثيرة التردد فى كلامنا العادى اليومى. أما الصلاة فكأنها لا تعرفها .

– تفرط فى وصف مشاهد جنسية عديدة بالتفصيل الممل مما لا يتناسب مع نشأتها ولا الوسط الاجتماعى الذى نشأت فيه . ثم إن هذه طريقة يتبعها الكتاب الغربيون ليحركوا مشاعر القارئ لديهم إذ أصبحت حياة هذا القارئ الغربى عموما عقلانية إلى درجة كبيرة ومحكومة بقيم مادية إلى حد كبير .

– ثم إن الكاتبة تؤيد الرؤية الغربية التى ترى أنهم أحسن منا وأقوى وأذكى والوحيدون الذين يعرفون معنى التقدم وقيمته إذ تنبهر البطلة فى الرواية بما تراه هناك وتشعر بالملل والضيق وخيبة الأمل بما تراه لدينا فى مصر.

– كلما عادت فى زيارة من إنجلترا إلى مصر سعدت بلقاء أفراد عائلتها وصديقاتها ولكنها تلاحظ أن حياتهم راكدة لا تتقدم وكأنهم يدورون فى حلقة مفرغة وكأن ليس هناك أمل فى أن تحرز مصر أى تقدم فليس بالرواية ما يوحى بذلك .

– تترك وظيفتها بالجامعة فى مصر وتستريح لذلك لأنها ترى أن هذه الوظيفة لا تقدم لها أى جديد وأن الجامعة المصرية لا مستقبل لها، ثم أنها تغادر مصر كلها حيث ترى أنها لن تعيش حياة ذات قيمة إلا فى الغرب ، وهى بذلك تنقطع عن جذورها .

هذا – باختصار شديد – ما تقدمه رواية «فى عين الشمس» لأهداف سويف التى أحرزت نجاحا كبيرا فى البلاد الغربية، ويرجع نجاحها أساسًا إلى أن مؤلفتها مصرية الأصل والنشأة ولكنها مصرية اقتنعت بهم وبآرائهم وأفكارهم وحياتهم وهى صريحة فى موقفها منا وفى الرؤية التى تقدمها فى جميع أعمالها وهى الرؤية الغربية .

وما نفهمه من هذا أن الرؤية التى يتخذها المرء ويحكم بها على الأمور ليست مرتبطة بالنشأة ولا بالتربية فكثيرًا ما تغير الناس مواقفها تماما عندما تقتنع بوجهة نظر جديدة ويكون هذا التغيير صريحا وواضحا وجذريا . يجب علينا إذن أن نتساءل دائما عما يعجبنا فى رواية نقرؤها وأن نبين رأينا قبل أن نحكم عليها لأن الروايات – كما قلنا – ليست مجرد قصص نقرؤها بغرض التسلية بل الروايات فى جوهرها أعمال سياسية من الدرجة الأولى سواء فى شكلها الفنى أو فى مضمونها ومن هنا فهى تقدم رؤية «حضارية» أو «ثقافية» .

صورة مقبولة لمصر وللإسلام

إن كل ما عرضته حتى الآن هو نماذج من الأدب الغربى - الإنجليزى بالتحديد - تظهر كيف أن موقف الغربيين منا هو موقف استعلاء واستكبار اكتسبوه من قراءاتهم الكثيرة التى علمتهم ذلك ووجهتهم إليه. وأصبحت فكرة أنهم الأعظم والأذكى والأقوى جزءًا من تكوينهم الشخصى وأصبحوا يؤلفون ويتصرفون حسبها ثم يحاولون إقناعنا بذلك متجنبين تماما وجود تعدد ثقافات وأن كلا منها جديرة بالاحترام . وبما أن الغربيين كثيرو القراءة انتشرت هذه الفكرة أو هذا الموقف وأصبح يحكم الرأى العام لديهم إذ أصبح أمرًا واقعًا لا يرون أن يعيدوا فيه النظر، ويرجع ذلك إلى أن هذا الموقف يوطد موقفهم الحضارى ويجعل منهم السادة الذين يتصرفون فى أمور العالم ويسيطرون على مراكز القوة فيه. ومن هنا انتشرت هناك كتب مثل مؤلفات هانتنجتون وفوكوياما (انظر كتاب «الغرب والإسلام» ص ٢١١ - ٢١٨) التى فى الحقيقة عنصرية لأبعد الحدود ولا تعرض إلا أفكارًا سطحية للغاية ، والدليل على ذلك المراجع التى تستند عليها هذه المؤلفات فليس فى مراجعهم كتاب واحد قيّم ، واعتمادهم عموما فى أقوالهم عنا وعن حضارتنا وعن الإسلام على مقالات فى صحف وأقوال فى أحاديث إذاعية. أما تعميماتهم وتصريحاتهم واستنتاجاتهم فتضرنا ضررًا بالغًا إذ أن كلها تعبر عن

صراع بين الحضارات ولا تأخذ فكرة الحوار والتفاهم في الاعتبار أبدًا . والمؤلفات المذكورة بين يدى واحكم عليها من الواقع الذى أمامى .

والسؤال الذى يفرض نفسه علينا الآن هو: **ألا نجد كاتبًا واحدًا في الغرب صورنا بطريقة مرضية ؟**

والإجابة هى أننى عثرت عن طريق المصادفة على مثل هذا الكاتب ولكنه ليس بكاتب روائى ولا شاعر ولا كاتب مسرحى بل إنه رجل إنجليزى عادى اسمه جوزيف ماك فيرسون (١٨٦٦ - ١٩٤٦ عاش بيننا فى مصر ما بين ١٩٠١ و ١٩٤٦). وخلال إقامته بمصر كتب العديد من الرسائل إلى أفراد أسرته فى إنجلترا يعرفهم فيها على مصر والمصريين، ثم نشرت مختارات من هذه الكتابات فى عام ١٩٨٣ تحت عنوان «حياة فى مصر» وهو كتاب جميل جدًا يتكون من ٣٠٠ صفحة، ونقرأ فى المقدمة أنه لو نشرت الرسائل هذه بأكملها لكونت تقريبا ٢٦ مجلدا .

ورغم جمال هذا الكتاب وقيمته - فإنه يقدم مصر والمصريين بطريقة محايدة إلى حد بعيد ، وهذا فى حد ذاته شىء جديد غير مألوف، والملاحظ أن الأنوار لم تسلط عليه بقدر كاف ويرجع ذلك إلى أن مؤلفه غير معروف . ثم أن مثل هذا الكتاب لا يخضع للرؤية الغربية العامة المألوفة ، وعلى هذا الأساس لا يخدم المصالح السياسية الغربية وهو لذلك - على ما أظن - غير مستحب .

وإلى جانب هذه الخطابات كتب ماك فيرسون كتابا وصف فيه موالد مصر ، نشره على نفقته الخاصة عام ١٩٣٧ ، وفرحت عندما وجدته ترجم إلى العربية عام ١٩٩٧ وصدرت الترجمة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

إن جوزيف ماك فيرسون من هؤلاء الإنجليز الذين بعثوا إلى مصر من قبل الحكومة الإنجليزية أثناء احتلالها لنا بهدف التدريس فى مدارسنا . وكانت حكومة إنجلترا - كما هو معروف - ترسل هؤلاء الشبان الإنجليز لكى يعملوا إما فى مجال التدريس وإما فى إدارات الوزارات الحكومية المختلفة . كانت هذه من ضمن الطرق التى كانت تسيطر بريطانيا بها على بلادنا سيطرة ثقافية .

الكثيرون من الأجيال السابقة ومنهم جيل أبى الدكتور حسين مؤنس والجيل الذى تبعه لم يدرس لهم اللغة الإنجليزية إلا إنجليز جاءوا رأسًا من إنجلترا للقيام بهذه المهمة. وسمعت أن هؤلاء المدرسين الإنجليز كانوا يعملون فى شتى أنحاء بلادنا . وأعرف مصريين لا يزالون يتذكرون مدرسيهم الإنجليز الذين كانوا يدرسون لهم فى أماكن بعيدة عن العاصمة مثل قنا وإدفو ثم الأقصر وأسوان . ويحكون أن هؤلاء الإنجليز كانوا يندمجون فى حياة المصريين وأنه نشأت صداقات حميمة بينهم تركت ذكريات لا ينسوها . ويحكون أنه مهما تعمقت هذه الصداقات فكان نفس هذا الرجل الإنجليزى يقوم بواجبه خلال التدريس بجدية «إنجليزية» حتى يحقق الغرض

الذى أتى لمصر من أجله . فكان يعتبر أن تدريس اللغة الإنجليزية – أو التدريس بالإنجليزية عمومًا – عملاً وطنيًا ينشر من خلاله حضارة وثقافة بلده .

ونشأت بين هؤلاء الرجال الإنجليز وبين أفراد من الشعب المصرى علاقات إنسانية ولـدت صداقـات حقيقيـة مـازال بيننـا مـن يتذكـر أمثالها. وما أريد أن أقوله هنا أنه من الممكن أن تنشأ علاقات سوية بين مصريين وغربيـين إذا تعـاملوا علـى المسـتوى الإنسـانى تـاركين جانبًا السياسات العليا والمصالح المادية والعقائد الدينيـة التـى كثـيرًا ما تفصل بين أبناء الشعوب المختلفة .

كان جوزيف ماك فيرسون من ضمن هؤلاء الإنجليز الذين أتوا إلى مصر للعمل فى الإدارة الإنجليزية هنا. وعمل فى المدرسة الخديويـة الثانوية بالقاهرة، ثم جند فى الجيش الإنجليزى ، ثـم عمـل فـى المخابرات الإنجليزية ، وبعد عمر طويل فضل أن يكمـل حياتـه فـى مصر بعد أن أحيل على المعاش فى ١٩٢٥ حيث مات ودفن فى مصر فى ١٩٤٦.

كان ماك فيرسون طيلة إقامته بيننا يقوم بإرسال خطابات عديدة لأفراد أسرته فى إنجلترا يصـف لهـم فيـها حياتـه فـى مصـر التـى اعتبرها دائما بلدا مختلفا عن إنجلترا وهو فى رأيه بلد يقدم مـا هـو جميل ومثير للاهتمام وجدير بالاحترام رغم اختلافه كل الاختـلاف عن بلده إنجلترا .

وقبل أن نبدأ بعرض بعض هذه الخطابات أحب أن أضيف أن ماك فيرسون لم يغير من عاداته الإنجليزية التي كان قد نشأ عليها، ثم إنه لم يعتنق الدين الإسلامى إذ مكث مسيحيا كاثوليكيا خلال الفترة الطويلة التى أمضاها بيننا أى بين ١٩٠١ و ١٩٤٦.

وبخصوص خطاباته فهى صريحة إلى أبعد حد إذ لم يكن يفكر أبدًا فى نشرها. أما عن أسلوب هذه الرسائل فالكثير منها كتبت بأسلوب يجعل منها قطعًا فنية فى حد ذاتها.

ونعرض هنا، باختصار شديد، بعض الأفكار التى يتناولها كتاب «حياة فى مصر» (١٩٨٣):

- من ناحية وصف المناظر الطبيعية فى مصر فهو وصف دقيق يوضح جمال الطبيعة المصرية فى حد ذاتها، وليس هناك أى محاولة لمقارنتها بالطبيعة الإنجليزية ولا المفاضلة بينهما. فهناك وصف للمناظر الطبيعية وللأماكن التاريخية ولحياة المصريين فى المدينة وفى الريف، ونشعر فى كل هذا احترامًا شديدًا ثم حبًا حقيقيًا لما يصفه من عادات شعبية وسلوك وتصرف مختلف عما عرفه هو ولكنه جدير بالاحترام فى رأيه.

- إنه يعامل المصريين معاملة الند للند ويصاحبهم داخل بيوتهم وأماكن عملهم وفى عاداتهم العائلية والدينية . ونفهم أنه أحبهم حقيقة وأنهم كانوا يثقون فيه .

– أما عن الشخصيات المصرية التى كان يقابلها بيننا فكان يحترم الكبير منا والصغير فلم يفرق بين الناس بحسب طبقاتهم الاجتماعية، بل كانت تهمه العلاقة الإنسانية فى حد ذاتها، وفى هذا كان يختلف كثيرا عن باقى الغربيين الذين عرضنا كتاباتهم هنا. فقد كان – على سبيل المثال – يصاحب زملاءه المدرسين المصريين ، ويتبادل معهم الزيارات، وكانت له علاقات إنسانية بمن خدموه من المصريين ويصفهم فى خطاباته على المستوى الإنسانى وينسى أنهم مستخدمون لديه فيراعى طباعهم وأفكارهم وظروفهم ولا يسخر منهم كما يفعل باقى الكتاب الغربيين .

– ثم أن التلاميذ المصريين الذين درس لهم كانوا يفتقدونه عند غيابه عنهم وكان على عكس مدرسين إنجليز آخرين درسوا فى مصر، لا يقلل من قيمة التلميذ المصرى عند مقارنته بالتلميذ الإنجليزى .

– وكان ماك فيرسون يحترم المصريين حتى فى آرائه السياسية. فكان على سبيل المثال يعتبر أنه لم يأن الأوان لكى يحكم المصريون بلدهم لأن خبرتهم فى السياسة لم تكن كافية. ولكن لو كان هذا رأيه وهو رأى عنصرى، فالواضح فى كتاباته فى هذا الموضوع أنه كان يتكلم من منطلق الخوف عليهم من تجربة الحكم الذاتى لا من موقف استعلاء . ثم إنه لم يكن يحب السياسة، ويدلى بذلك صراحة ويفضل أن يتجنب الكلام فيها .

– ثم إنه كان يحترم الزعيم القومي سعد زغلول وفي كثير من خطاباته كان ينتقد الإنجليز وسياستهم ورجالاتهم ومعاملتهم للمصريين .

أما بالنسبة للدين الإسلامي فكان يرى أنه غريب عنه، ولكنه لم يقلل من شأنه لهذا السبب فاعتبره جديرا بالاحترام لا يقل عن الدين المسيحي من ناحية قيمته العقائدية ومبادئه . وفي كثير من خطاباته يحاول أن يشرح لأفراد عائلته الإنجليزية ما فهمه من مبادئ الدين الإسلامي ويقدمه لهم على أنه يختلف عن دينهم المسيحي ولكنه لم يقلل في قيمته العقائدية. ثم إنه لم يربط بينه وبين أفكار العدوانية والقسوة والهمجية والجريمة كما فعل غيره من الإنجليز .

هكذا استطاع ماك فيرسون أن يقدم صورة محايدة إلى حد كبير لمصر وناسها وتقاليدها ودينهم. وهي صورة مقبولة تصورنا على أننا ننتمي لثقافة وحضارة مختلفة عن حضارة الغرب وثقافته ولكنها حضارة لها خصائصها التي تلائم الطباع العامة لتابعيها. ونجح هذ الإنجليزي في أن يحقق نوعا من الحوار بين الحضارتين وهو شي لم نجده في معظم الأعمال الفنية التي عرضناها هنا. والسبب في ذلك يرجع أساسا إلى أن ماك فيرسون حكم على الحضارتين، أي الغربية والشرقية، من منظور إنساني إلى حد كبير .

....

ويحضرني كتاب صدر مؤخرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب يعالج موضوعات في مجال الأدب المقارن وهو مجال يثرى موضوع الحوار بين الحضارات وهو كتاب للمرحوم فخرى أبو السعود، ونشر تحت عنوان **«الأدب المقارن ومقالات أخرى»** (١٩٩٧).

وقد يكون فخرى أبو السعود أول مصرى قارن بين الأدبين الإنجليزى والعربى على أساس الجماليات بدون أن ينحاز لأدب كل منهما ضد الآخر.

والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات نشرت فى أواخر الثلاثينات من هذا القرن فى مجلتى «الثقافة» و «الهلال» تظهر كيف أنه ليس هناك فارق حقيقى بين الشعوب المختلفة فيما يخص إنتاجهما الأدبى أى أن الشعبين الإنجليزى والعربى يتساويان على الصعيد الإنساني. نفهم إذن أن المواقف العنصرية مواقف مصطنعة وليس لها أساس ثابت.

قدم هذا الكتاب النادر فى مقدمة مطولة قيمة فى حد ذاتها الدكتور محمود على مكى أستاذ الأدب الأندلسى بكلية الآداب جامعة القاهرة وقامت الباحثة المجتهدة جيهان عرفة بإعداد المقالات للنشر.

قبل أن أختم

إن معظم ما قدمته هنا من صور لمصر والمصريين ودين الإسلام لابد أن يثير فينا الحزن وربما الغضب فنظهر في معظمها شعبا وثقافة ودينا بطريقة غير مشرفة وغير مطابقة للواقع . والاستثناء الوحيد هى رسائل ماك فيرسون وهى رسائل شخصية لم تكتب بغرض النشر ثم إنها رغم أهميتها لم تحظ بدعاية كافية حتى يتعرف عليها الجميع الذين يهمهم مثل هذا الموضوع. إلى جانب هذا فنحن صورنا ومازلنا نصور بنفس الطريقة السلبية غير المرضية منذ قديم الزمن إلى يومنا هذا. ولا تظهر صورتنا السيئة هذه في الآداب الغربية فحسب بل تظهر أيضا في المراجع التاريخية والفلسفية والاجتماعية، وتنشر أيضا عبر وسائل الإعلام المختلفة. وسوف تظل هذه الصورة موجودة ومنتشرة حتى نقوم نحن بتصحيحها عن طريق كافة الطرق المتاحة لنا مثل الإكثار من الدراسات المقارنة والتحقيق العلمى لكتب التراث، والترجمة الوافية للكتب المهمة على المستوى الدولى، والمشاركة الفعلية في المؤتمرات، وإقامة مؤتمرات تفيد وتقوى موقفنا الحضارى حتى نوضح أننا – على الرغم من اختلافنا عن الغربيين وغيرهم – فهذا الاختلاف لا ينفى قيمتنا تاريخيا وحضاريا وثقافيا.

إن هذا يحدث حاليا فى مصر بالفعل ويكفى أن ننظر إلى ما يقدمه المعرض الدولى للكتاب من ندوات ولقاءات سنوية، وكذلك المجلس

الأعلى للثقافة، وجامعاتنا كلها، والجمعيات الثقافية مثل اتحاد الكتاب ونادى القصة وجمعيات أخرى، وكذلك مشروع مكتبة الأسرة العظيم للسيدة الفاضلة سوزان مبارك الذى يشجع على القراءة ويحبب الناس فيها. لابد أن يستمر ذلك كله لأنها مجهودات تجد قبولاً شديدًا من المثقفين وتؤخذ عمومًا مأخذ الجد مما يدل على أن الاهتمام والانتماء الوطني موجود رغم ما يقال عن أنه عكس ذلك.

المهم أن يسلط على هذه المجهودات مزيد من الأضواء وأن تجد صدى أقوى فى وسائل الإعلام.

والسؤال هنا. هو: **كيف ننتظر أن يغير الغرب رأيه عنا مادمنا نحن لا نبالى بالقدر الكافي لما يقال ويكتب عنا هناك؟**

إن «صراع» الحضارات لن يتحول أبدا إلى «حوار» إلا لو تحركنا بخطوات إيجابية حتى نلتقى مع الغربيين أو غيرهم لقاء الأنداد لأن الاختلافات بيننا وبينهم كثيرة جدا ومرتبطة بجذورنا وتاريخنا وديننا وتقاليدنا، وأذكر بعض الأمثلة لكى يفهم ما أقصده:

– إننى عندما أتلقى دعوة على غداء أو عشاء عند ناس غربيين لابد أن آكل شيئا قبل ذهابى لأننى أعرف مقدمًا أن ما سيقدمونه لى لا يكفينى لكى أشبع. أما لو تلقيت دعوة لنفس الغرض من ناس مصريين فعلى أن أذهب صائمة تقريبا لأننى أعرف أن ما سيقدمونه سيكون كثيرا وأنه يجب أن أتناول منه الكثير حتى أرضى كرمهم وتقديرهم لى .

والسؤال هنا هو: هل يدل المثال الأول على بخل والثانى على إسراف؟ لا أظن فكلاهما يدل على طباع معينة وتقاليد موروثة ومفاهيم حضارية مختلفة لا أكثر ولا أقل .

– إننا كلنا تتبعنا على شاشة «التليفزيون» مراسم تشييع الأميرة ديانا. هل نتذكر دقة التوقيت التى تتبعتها هذه المراسم؟ إن كل شىء تم فيها حسب توقيت محدد رتب من قبل. ولابد أن المنظر المنتظم ووضوح ونظافة المشهد أثار فينا جميعا الإعجاب والاحترام لأن الإنجليز ظهروا أمامنا فى أحسن صورة. ثم كمية الورود التى وضعها أفراد الشعب الإنجليزى على الأرصفة هناك كان شيئا مذهلاً ومدهشًا فعبروا بذلك عن شيئين: أولهما عن حزنهم على موت الأميرة، وثانيهما على احتجاجهم على موقف الأسرة المالكة الإنجليزية من الأميرة وحياتها وموتها. ثم فهمت الأسرة المالكة «الاحتجاج الصامت» هذا واستجابت إليه. إذن هم يعبرون عن مشاعرهم فى صمت وبأفعال هادئة .

ماذا يحدث عندنا عندما نشيّع جنازة شخص معروف؟ إننا فى الغالب لا نسيطر على عواطفنا بل نعبر عنها بالكلام وبالبكاء وغالبا ما ينسينا هذا النظام المتفق عليه مسبقا. وهنا نقول أيضا أن الاختلاف السلوكى يدل على اختلاف حضارى ولكن البديلين مقبولان رغم اختلافهما .

هل نذكر ما يصاحب مناسبات عقد الزواج فى الغرب ونفس الاحتفال عندنا؟ ومناسبات الولادة ؟

إنهم هناك فى البلاد الغربية، كما شاهدنا ذلك مرارًا فى الأفلام أو على الطبيعة، يحتفلون بهدوء، أما نحن فغالبًا ما تكون احتفالاتنا مصاحبة بضجيج تفقد احتفالاتنا قيمتها بدونه. وكل هذه المظاهر لا تدل إلا على اختلاف حضارى.

هل يعنى هذا أننا أقل من غيرنا؟ لا أظن فهنا أيضا نجد أن اختلاف السلوكيات مرتبط بالخلفية الحضارية والثقافية وأشياء أخرى كثيرة. لابد أن يقتنع إذن الغرباء عنا أننا مختلفون ولكن ما نقدمه ليس إلا بديلا له قيمة حضارية لا تقل عن غيرها.

هل آن الأوان أن نبدأ ذلك الحوار بين الحضارات ؟ أو علينا أن ننتظر حتى يقتنع الغربيون بأن فى هذا مصلحة لنا جميعا ثم يستجيبون ؟ كل ما نرجوه أن يحدث ذلك قبل فوات الأوان .

والله ولى التوفيق ..

المراجع

روايات قدمت دراستها وعرضها وبعض المؤلفات الأخرى التى أشير إليها لأهميتها.

مراجع إنجليزية:

- Ahmed, Laila: Edward Lane. London: Longman, 1978.
- Bernal, Martin: Black Athena . London: Free Association Books, 1991.
- Durrell, Lawrence: The Alexandria Quartet. London: Faber, 1962.
- Huntington, Samuel: The Clash of Civilizations. New York: Simon and Schuster, 1996.
- Lane, Edward: The Manners and Customs of the Modern Egyptians (1836). London: Dent, 1923.
- Lively, Penelope: Moontiger (1987). London: Penguin Books, 1988.
- Mac Pherson, Joseph: A Life in Egypt. London: B.B.C., 1983.

- Manning, Olivia: The Levant Trilogy. London: Penguin Books, 1982.
- Newby, P.H.: The Picnic at Sakkara . New York: Knopf, 1955.
- Saad el-Din, M. and John Cromer: Under Spell. London: Bellew, 1991.
- Said, Edward: Orintalism (1978). New York: Vintage Books, 1979.
- ----------------: Covering Islam (1981). London: Routledge, 1983.
- Souif, Ahdaf: In the Eye of the Sun. London: Bloomsbury, 1992.

مراجع عربية :

- أبو السعود، فخرى: **فى الأدب المقارن ومقالات أخرى** . إعداد جيهان عرفة. تقديم : د. محمود على مكى. سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٢٧٨. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.
- البنا، رجب: **الغرب والإسلام** . القاهرة :دار المعارف ١٩٩٧.
- برنال، مارتين : **أثينا السوداء** . ترجمة : لطفى عبد الوهاب، فاروق القاضى ، حسين الشيخ، منير كروان، عبد الوهاب علوب . إشراف أحمد عتمان . القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٧.
- داريل، لورينس: **رباعية الإسكندرية** (١٩٦٢) وتشمل:
- جوستين . ترجمة : فخرى لبيب. القاهرة: دار المعارف ١٩٦٩ ودار سعاد الصباح ١٩٩٤. **بالتازار، ماوتتوليف، كليا** . ترجمة : فخرى لبيب. دار سعاد الصباح ١٩٩٤ .
- زقزوق ، محمود حمدى: **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى** . القاهرة دار المعارف ١٩٩٧ .
- سعيد، إدوارد : **الاستشراق**. ترجمة كمال أبو ديب . بيروت مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨١.
- لين، إدوارد : **المصريون يتحدثون تقاليدهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر** ترجمة : عدلى طاهر نور. القاهرة : مطبعة الرسالة ١٩٥٠.

- مؤنس ، حسين: دراسات فى ثورة ١٩١٩ . سلسلة اقرأ رقم ٤١٨. القاهرة: دار المعارف ، ١٩٧٦ .
- مؤنس ، حسين: مصر ورسالتها (١٩٥٥) القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ .
- ماك فيرسون، جوزيف: الموالد فى مصر (١٩٣٧) ترجمة وتحقيق : د. عبد الوهاب بكر سلسلة الألف كتاب الثانى . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ .
- هنتنجتون ، صامويل: صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمى (١٩٩٦) ترجمة : طلعت الشايب . تقديم: د. صلاح قنصوة . القاهرة : سطور ، ١٩٩٨.

المحتويات

الصفحة